من أجل الدين والأمة

أ. د. عبد الكريم بكار



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

مِنْ أَجْلِ الدِّينِ وَالأُمَّةِ

تأليف

أ . د . عَبْدُ الكَرِيمِ بَكَّار

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

بكار، عبد الكريم.
من أجل الدين والأمة / تأليف عبد الكريم بكار. - ط ١. - القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠م.
١٦٠ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك ٥ ٨٩٤ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الإسلام - حركات الإحياء والإصلاح والتجديد.
أ - العنوان.
٢١٩

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م، ٢٠٠٠م، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تقديرًا لعقد ثلث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة: القاهرة: ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الأزهر: ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف: ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع مدينة نصر: ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف: ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الإسكندرية: ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا: القاهرة: ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني: info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت: www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

* * *

بيئة النهضة

يبدو أننا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ بداية أحاديث الناس عن الإصلاح والنهوض، كما أننا لا نتوقع أن نشهد أية نهاية لذلك، وهذا بسبب أن ما نريده، ونطمح إليه كثيرًا ما يتجاوز إمكاناتنا الناجزة والظاهرة، ما يولِّد شعورًا بالعوز إلى التغيير الهادف إلى التقدم.

وأعتقد أن من مسؤوليات الصفوة المستنيرة في كل بلد القيام بإيجاد استنارة عامة لدى جمهور الناس باحتياجات النهضة وبثقافتها وبالبيئة التي تتطلبها؛ وذلك لأن قناعات الناس بمستلزمات الرقي والازدهار تشكل البداية الضرورية لانطلاقهم نحو تحمُّل مسؤولياتهم على طريق النهوض. وقد يقول قائل: ما تقولونه اليوم قال كثيرًا منه المصلحون قبل قرن من الزمان، كما فعل الكواكبي في كتابه: « أم القرى » وكتابه: « طبائع الاستبداد » ولم نجد لذلك أي فائدة أو نتيجة؟.

هذا الكلام صحيح في مجمله، لكن السؤال الذي يطرح نفسه أيضًا هو كم نسبة المسلمين الذين اطلعوا على ما كُتب حول النهضة؟ وكم نسبة الذين فقهوا ما قرؤوه؟ وكم نسبة الذين تفاعلوا معه، وأخذوا يغيرون حياتهم في ضوئه وعلى

هديه؟ وهل المطلوب حتى تنهض الأمة هو برنامج تلفازي أو كتاب أو مؤسسة خيرية؟ أو أن المطلوب إيجاد بيئة جديدة، تدفع الناس دفعًا في طريق الصلاح والخير والنمو؟ أسئلة كثيرة من هذا القبيل، تحتاج إلى إجابات دقيقة وواضحة.

في البداية أقول: إنَّ هناك فارقًا بين الحديث عن النهضة وبين ثقافة النهضة وبيئة النهضة، وإن كل ما يمكن للمثقفين القيام به هو تثقيف الناس بمتطلبات النهضة، أما بناء بيئة النهضة، فإنه يحتاج إلى جهود كلِّ الراشدين من حكام ومحكومين ورجال ونساء ومثقفين وعمال ومزارعين.. وهذا ما أسعى إلى توضيحه هنا.

وبما أننا مسلمون، ونخاطب جماهير إسلامية، فلا بدَّ أن يكون الحديث عن النهضة مؤطَّرًا بالعقائد والمبادئ والرؤى والأخلاق الإسلامية، وإلا كنا كمن يحرث في البحر، أو يصرخ في وادٍ. وأنا أعترف بأن ما أقوله عن النهضة لا يعدو أن يكون مقاربة أولية، وسيظل هناك مدى فسيح وكبير للإضافة والتعديل والنقد والإنضاج؛ **ولعل أوجز ما أريد من مقومات بيئة النهضة في المفردات الآتية:**

الإيمان:

يشكِّل الإيمان بالله - تعالى - ورسوله ﷺ والإيمان بالقرآن وأصول الدين وقطعيات الشريعة أهم مقوِّم من

مقومات بيئة النهضة لأنه يشكل الأرضية الصلبة والجامعة لكل أبناء المجتمع الإسلامي، كما أنه يشكل الأساس والإطار لكل الأفكار المطروحة من أجل النهضة.

إن المجتمع الذي يتجادل حول الأصول والكليات يجد نفسه مرتبكًا ومكبلًا، كما يجد أنه يستهلك الكثير من طاقته ووقته في الصراعات الداخلية وكسب الأنصار للاتجاهات الإصلاحية المتباينة والمتضاربة.

ويجب أن نقول: إن لدينا الكثير من المعاناة على هذا الصعيد، ويكفي لإدراك ذلك أن تستمع إلى مفكّر إسلامي ومفكّر قومي أو علماني أو ليبرالي وهم ينظّرون للواقع والمستقبل، إنك ستشاهد اختلافًا واضحًا في رسم الأولويات، وفي التركيز على المشكلات، كما ستشاهد اختلافًا ظاهرًا في نوعية الحلول المقترحة، وهذا يعود أساسًا إلى حالة التخلّف والتأزم التي نعيش فيها، ولو استطعنا تحقيق بعض القفزات النوعية على الصعيد العملي والمعطيات الملموسة، فإن كثيرًا من الجدل حول الكثير من الأشياء سوف ينتهي بطريقة آلية، وهذا يتطلب من الخيّرين من أبناء هذه الأمة أن يعملوا بجد واجتهاد على تحسين سوية الحياة اليومية للفرد المسلم وتبصيره بمتطلبات النجاح الفردي.

الشعور بالتحديات:

أعطى اللَّه - سبحانه - الإنسان قدرة هائلة على التكيف مع الشدائد والصعاب، ومن ثم فإن من السهل عليه أن يشعر بأنه يعيش في أوضاع طبيعية، مع أنَّ الأمر ليس كذلك، والوعي البشري مستعد دائمًا للاندماج في الواقع والنظر إلى المعطيات الراهنة على أنها أطر ثابتة للتفكير والتخطيط والحركة، وهذا ما نشاهده لدى الشعوب المغرقة في التخلف.

إنَّ حلَّ المشكلات يحتاج إلى معرفة، وإدراك المشكلات يحتاج أيضًا إلى معرفة، وحين لا تتوفر تلك المعرفة، فإنَّ الناس يعانون على نحو صامت دون أن يعرفوا مخارج الخلاص من معاناتهم. وقد ظلت النساء تعاني قرونًا طوالًا من كنس البيوت، وهنَّ منحنيات الظهور إلى أن جاء رجل ذكي، فأنهى معاناتهن من خلال وضع عصا في يد المكنسة، تمكِّن مستخدمها من أن يكنس وهو واقف!.

ما الذي علينا أن نعمله حتى يشعر الناس بأن أمامهم فرصة للانتقال إلى حياة أكرم وأجمل من الحياة التي يعيشون فيها؟

إنَّ النهضة التي نتطلَّع إليها هي نهضة روحية خلقية في المقام الأول، والتقدُّم الحقيقي ذو طابع إيماني ومعنوي أكثر من أي شيء آخر، وفي هذا الإطار يمكن القول: إن عقائدنا ومبادئنا والأحكام الشرعية التي توجِّه مسيرتنا، تشكِّل أداة

مهمة جدًّا لفهم المشكلات التي تقعدنا عن الارتقاء، وتحول بيننا وبين التحضُّر المطلوب.

إنَّ شعور أعداد كبيرة من الشباب بالفراغ العقلي والروحي، سببه ضعف الصلة بالله - تعالى - وعدم هندسة الحياة الشخصية على نحو جيد؛ كما أنَّ تفريط أعداد وفيرة من المسلمين بأداء الواجبات الشرعية، مثل الصلاة والزكاة والصيام... ووقوعهم في المحرمات والموبقات مثل الزنا وشرب الخمر والرشوة... إن كل هذا يؤشر إلى التحديات التي نواجهها والمشكلات التي ينبغي حلُّها.

أما على مستوى العمران والتعليم وتوفُّر الخدمات والإدارة وطرق معالجة المشكلات ومدى توفر الأمن والسلم الاجتماعي... فإن (المقارنة) تعدُّ أفضل وسيلة لإدراك موقعنا العالمي على خريطة التقدُّم والتخلُّف، ومن الواضح في هذا الإطار أنَّ معظم الدول الإسلامية تعاني من مشكلة عدم توفر الأرقام والإحصاءات التي يمكن أن ترشدنا إلى واقعنا العمراني والتنظيمي والاجتماعي.

والحقيقة أنَّ فقد الأرقام ليس سوى واحد من معطيات التخلف ومستلزماته، حيث إنك تجد دائمًا وأبدًا أنَّ توفر الأرقام مقترن بمستوى تحضُّر البلد وتقدُّمه، كما تجد أنَّ فقدها والفقر فيها يكاد يكون شيئًا بدهيًا لدى الدول المتخلفة.

ولهذا فإن بيئة النهضة التي ننظر لها، تحتاج إلى أجهزة كبيرة ونشطة للإحصاء وإلى (بنوك) غنية بالأرقام عن أوضاع البلد، وذلك حتى نتمكّن من مقارنة أحوالنا وأوضاعنا بأحوال الآخرين وأوضاعهم. نريد أرقامًا دقيقة وصادقة حول: التعليم والصحة ودخل الفرد وحالات الطلاق والإدمان على المخدرات والتدخين وحول كفاءة أداء مختلف الدوائر والمؤسسات الحكومية، كما نريد أرقامًا حول انحرافات الأحداث ومشكلات الشباب المختلفة.

ومع أن على الحكومات أن تنهض بنفسها لهذه المسألة، إلا أنَّ من المفيد إنشاء العديد من الوكالات الأهلية التي تهتمُّ بإجراء مسوحات حضارية واجتماعية، وتعمل على كشف المشكلات من خلال الأرقام.

ولا ننسى في هذا المقام دور المثقَّفين والمرشدين الناصحين، فالمثقف قادر على أن يصطدم الوعي المخدَّر والشارد والمشغول كي يستفيق من سباته، ويبدأ بفهم حقيقة الظروف والمعطيات السائدة.

الصدق:

الصدق والمصداقية والثقة من المقومات الأساسية لبيئة النهضة، بل هي مقومات أساسية في استقامة الحياة الشخصية لكل إنسان مهما كان وضعه واتجاهه، وهذا ما يشير إليه

قوله ﷺ: **« إن الصدق يهدي إلى البرّ، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدقُ حتى يُكتب عند اللّٰه صدِّيقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذبُ حتى يُكتبَ عند اللّٰه كذابًا »** [1] إن (البر) اسم جامع لكل أنواع الخير، وكأن الصدق يجعل صاحبه في وضعية خيِّرة، وينقله من فئة إلى فئة ومن حالة إلى حالة. لا جدال في أنَّ الصدق قيمة من القيم الإسلامية الجليلة، ولا جدال في أهمية قيام الأسر والمدارس بترسيخ هذه الفضيلة في نفوس الناشئة، ولا أريد أن أتحدث عن هذا الآن، لكن أودُّ أن أشير إلى مسألة مهمة، وهي أنَّ في إمكان قطاع الأعمال أن يساهم مساهمة مؤثرة في نشر الصدق والمصداقية، وذلك عن طريق الشفافية والإفصاح وتقليل الغموض إلى أدنى درجة ممكنة، وهذا يحتاج إلى متابعة الدول وإلى إنجاز تشريعات ملزمة بهذا الخصوص.

إن كثيرًا من الكذب يجتاح المجتمعات بسبب السكوت وعدم حاجة الكذاب إلى الحديث عن أعماله، كما أن كثيرًا منه ينتشر بسبب الالتباس والغموض، وينتشر الكذب أكثر وأكثر بسبب أمن الكذاب من العقوبة والمساءلة، وأمنه من النقد وتناول الصحافة له ولأعماله وأقواله.

---

(١) متفق عليه.

حين نشعر أنّ فلانًا صادق، فإنه يصبح في نظرنا صاحب مصداقية، والمصداقية تولِّد الثقة، والثقة تشكل جزءًا مهمًّا من رأس المال الاجتماعي المهم لأيٍّ أمة أو جماعة، وربما أسهم تنظيم قطاع الأعمال على نحو ممتاز وأسهمت (أتمتة) الحياة في إشاعة الصدق والمصداقية إلى درجة كبيرة. المهم جدًّا ألا تكون مجتمعاتنا في وضعية يكافأ فيها الكذّاب ويعاقب فيها الصادق الأمين الشريف.

* * *

بيئة النهضة

كنت قد تحدثت سابقًا عن بعض الأمور المؤثرة في النهضة، والتي ينبغي أن تشكّل بيئة النهضة المنشودة، وأتحدث الآن عن (العدل) بوصفه معلمًا بارزًا على طريق ارتقاء الأمم وسلامة وجودها.

إنَّ العدل هو مقوِّم أساسي من مقوِّمات بيئة النهضة؛ وذلك لأنَّ البديل عن العدل هو الظلم، وهو عامل من أعظم العوامل التي تدفع بالأمم والحضارات نحو الدمار والخراب، وقد أمر اللَّه - تعالى - المؤمنين بإشاعة العدل حين قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

ووصف نفسه - سبحانه - بالقيام بالعدل والقسط حين قال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]. وأمر نبيَّه أن يبلِّغ الناس أن من مهامه إقامة العدل بينهم، فقال: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ﴾ [الشورى: ١٥]. إنَّ عملية العدل كانت في الماضي تعني أكثر ما تعني عدل القضاة بين الخصوم، أمَّا اليوم فإنَّ الوعي الحضاري

الذي تبلور لدى الناس على نحو جيِّد، وإن تعقُّد الحياة واتساع سيطرة الحكومات على جوانب الحياة المختلفة... إنَّ كل ذلك جعل مفهوم العدل واسعًا للغاية، وجعل تطبيقه على نحو دقيق أمرًا يشترط تجديدات ثقافية وقانونية وسياسية كثيرة وصعبة.

ولعلِّي أشير في هذا السياق إلى النقاط التالية:

١ - إذا أردنا للأمة أن تنهض، وإذا أردنا توفير بيئة تساعد على النهوض، فإنَّ علينا أن نرفع حساسية الإنسان المسلم نحو الظلم؛ لأنّ الناس حين يرفضون الظلم، يقلِّلون فرص وقوعه، وخير ما يحقِّق ذلك وضوح ما للمواطن من حقوق، وما عليه من واجبات، وإنَّ توفير الوضوح يحتاج من الإعلام أن يتبنَّى بناء ثقافة حقوقية جيِّدة لدى المواطنين؛ لأنَّ (الغموض) يجعل الناس في حيرة من أمرهم، كما أنه يوفر فرصة إضافية للظالمين كي يتمادوا في ظلمهم.

وإذا نظرنا اليوم في أحوال الأمم المتقدمة وجدنا أنَّ الإعلام يقوم بدور رئيسي في تعريف الناس على حقوقهم، وفي مساعدتهم على الوصول إليها. أما في العالم الإسلامي، فإنَّ الأمر يشهد بعض التحسُّن، لكن ما زلنا بعيدين عن المستوى المطلوب.

٢ - يقولون: شيئان تنهض بنهوضهما الأمم، وتنحطُّ بانحطاطهما، وهذان الشيئان هما: التعليم والقضاء. وهذا

القول صحيح إلى حدٍّ بعيد، فنحن لا نعرف بلدًا مزدهرًا اقتصاديًّا ليس لديه تعليم جيِّد، كما أننا لا نعرف بلدًا مزدهرًا أخلاقيًّا، لديه قضاء فاسد. **وإنَّ نزاهة القضاء تأتي من شيئين أساسيين:**

الأول: دين القاضي وخلقه وورعه، ومن هنا فإن التدقيق في اختيار القاضي والالتزام بما وضعه له الفقهاء من مواصفات يعدُّ شيئًا جوهريًّا للغاية. ومن المؤسف أنَّ بعض البلدان الإسلامية لا تهتمُّ بهذا الأمر إلى درجة أنَّ بعض قضاتها لا يصلحون بالمعيار الفقهي لأن يكونوا شهودًا فضلًا عن أن يكونوا قضاة! إنَّ المغريات التي يواجهها القاضي هائلة وإذا لم يكن متمتِّعًا بدرجة عالية من التدين وخوف الله - تعالى - فإن من السهل عليه أن يستجيب للإغراء، ويضيِّع بالتالي حقوق الناس.

الثاني: استقلالية القضاء وتوسيع سلطات القاضي وحماية الأحكام التي يصدرها، على ما كان معهودًا أيام إقبال الحضارة الإسلامية. إن من المهم جدًّا أن يشعر الضعيف والمظلوم أنه قادر على الوصول إلى حقِّه من غير عَنت ولا مماطلة، كما أنَّ من المهمّ أيضًا أن يشعر الناس جميعًا أنه لا أحد فوق حكم الشرع، ولا أحد فوق حكم القاضي، وأنَّ من يفكر في إشاعة الفوضى القانونية يجد من يقف في وجهه ويجعله يدفع الثمن غاليًا. ويعلِّمنا رسول الله ﷺ أن الازدواجية في تطبيق

الأحكام والنظم والعقوبات والحدود كانت سببًا في هلاك بعض الأمم واستئصال شأفتها حيث يقول: « **إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحدَّ على الوضيع، ويتركون الشريف؛ والذي نفس محمَّد بيده لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** »[١].

إنَّ على الناس أن يساعدوا القضاة على القيام بواجبهم، كما أنَّ في إمكان الدول والحكومات أن تساعد القضاة على الاستقامة وعلى تحرِّي الحقِّ في إصدار الأحكام، وذلك من خلال إيجاد تشريعات، تُلزم القضاة بنشر التفاصيل المتعلِّقة بسير الدعوى وحيثيات الحكم، وذلك في القضايا التي تثير الجدل، أو يشكو بعض الناس من الغبن والظلم الذي لحقهم فيها، وهذا الأمر عظيم الفائدة على مستوى نزاهة القضاء وفاعليته واستقلاليته، وعظيم الفائدة على صعيد إشاعة الثقافة الحقوقية والقانونية.

٣ - تحتاج الحكومات اليوم إلى تحقيق العدل بين أقاليم الدولة ومدنها وأريافها وبواديها، فلا يصحُّ ضخُّ المال الكثير في تنمية منطقة من مناطق القطر، والتقتير على منطقة أو مناطق أخرى، فخطط التنمية الجيِّدة تسعى دائمًا إلى إيجاد توازن مناطقيٍّ من خلال زيادة المساعدات للمناطق

---

(١) رواه البخاري.

الأشد فقرًا، ومن خلال إقامة المشروعات العملاقة حيث تشتدُّ معاناة الناس.

إن تماسك أجزاء البلد الإسلامي الواحد مهمٌّ للغاية، وهو لا يتمُّ من خلال تحبيب الناس بالوحدة، ولا من خلال سرد ويلات الفرقة والتناحر، فهذا غير مجدٍ ولا ثمرة له، وإنما يتمُّ من خلال شعور الناس بأنهم ينالون حقوقهم، ويستمتعون بخيرات بلادهم على قدم المساواة.

٤ - إنَّ موارد أي دولة مهما كانت هائلة، فهي في النهاية محدودة، وإنَّ الشعور بالمسؤولية تجاه الأجيال القادمة يستوجب أن تعمل الأجيال الحاضرة بقيادة الحكومات على إدارة الثروات المتاحة واستخدامها بحكمة بالغة. إنَّ عالمنا الإسلامي يتمتع بزيادة سكانية عالية في الوقت الذي تتراجع فيه مخزونات المياه في عدد غير قليل من دوله، كما تتناقص احتياطاتها من الثروات والمعادن المختلفة. وهناك شيء آخر لا يقل أهمية عن هذا هو نظافة البيئة الطبيعية وصلاحية الأرض للسكنى، حيث إن الاهتمام بحماية البيئة لدى معظم الدول الإسلامية في درجة متدنية، ما عرَّض المياه والهواء والتربة إلى أنواع خطرة من التلوث.

إن الأرض التي نسكنها تحتاج إلى أن نعاملها بالأخلاقية والآلية التي نجدها لدى محبِّي الكتب وعشَّاق المعرفة، حيث إنهم ينتفعون بمكتباتهم أفضل انتفاع، ويغنونها بالجديد المفيد

على نحو مستمرّ، وحين يتركونها لمن خلفهم، تكون أقيم وأكمل وأجمل. ومن هنا فإننا في حاجة إلى أن نطلق شعار (العدل بين الأجيال) أو (العدل بين الحاضر والمستقبل) وأن نعمل بجد وعناية على تدبير الإمكانات المتاحة على أفضل وجه ممكن. وأعتقد أنَّ على الحكومات أن تشجِّع الناس على إنشاء الهيئات والجمعيات التي تهتمُّ بحماية البيئة، وأن توفِّر لهم المساعدة والدعم الممكنين لأن من يفعل ذلك يسهم في تحقيق العدل الذي نتحدَّث عنه. إنَّ عمر ابن الخطاب ﷺ كان من رجال النظرة الإستراتيجية العظام، لأنه كان قبل أربعة عشر قرنًا يفكِّر في ذراري المسلمين، ويفكر في مستقبل الأحفاد والأسباط، حيث قد اشتهر عنه أنه رفض تقسيم أراضي العراق على المقاتلين والفاتحين، وإنما ترك الأرض في أيدي أهلها، وضرب عليها الخراج، وعليهم الجزية، وقد روي عنه أنه قال: « قد أشرك اللَّهُ الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء، ولئن بقيتُ ليبلغنَّ الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه في وجهه »[1].

حين نشعر أن ما بأيدينا من عقار وثروات ومياه وغابات مملوك لنا ولمن بعدنا ولو بمعيار أدبي وأخلاقي؛ فإننا سوف نكون

---

(١) انظر الخراج لأبي يوسف (ص ٢٤) وما بعدها، والأموال لأبي عبيد (ص ٥٧).

أكثر حكمة وأكثر حرصًا في استهلاك الموارد والانتفاع بها.

إن على التعليم والإعلام أن يقوما بالدور الأساسي في توفير المبادئ والمفاهيم التي تدفع الناس في اتجاه العدل، وفي اتجاه فهم المخاطر العظيمة المترتبة على شيوع الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، والمترتبة على التعامل الطائش مع مقدرات الأمة وخيراتها. إنَّ الظلم يقتل روح المبادرة لدى الناس، ويجعلهم في دوائر اليأس والإحباط، كما يثير فيهم مشاعر الانتقام والاحتجاج، والأخطر من ذلك، أنه يوفِّر منطق التظالم واستسهال البغي، ومن ثمَّ كان الظلم ظلمات يوم القيامة، كما ورد في الحديث الشريف [1].

* * *

(١) حديث صحيح رواه الترمذي وغيره.

بيئة النهضة

ليس طريق النهوض طريقًا معبَّدًا ومذلَّلًا، كما قد يظن كثير من الناس، فالحقيقة التي لا ريب فيها هي أن وضع القدم على سكَّة التقدُّم يتطلَّب الكثير من التضحيات والكثير من التغييرات الجوهرية في حياة الأفراد وفي الحياة العامة، وسيتركز حديثي على **التغييرات التي يجب أن تتم في بنية الدولة وبنية المجتمع التي يجب أن تتمَّ أيضًا في العلاقة بينهما، وذلك عبر المفردات الآتية:**

إذا عدنا إلى عهود الإسلام الزاهية وإلى الحقب الحضارية المزدهرة في حياة أمَّة الإسلام، فسنجد أنَّ القوَّة العظمى التي تسهم في الإنتاج والإعمار والبناء الحضاري عامَّة هي القوى الاجتماعية بكل أطيافها واختصاصاتها. أما الدولة، فكان جهدها الأساسي ينصبّ في حماية الثغور وتجهيز الجيوش وإقامة العدل بين الناس ومراقبة الأسواق ووضع الضوابط والمعايير لبعض الأنشطة والمهن مثل التجارة والطبابة... ولهذا فإن عدد موظفي الدولة كانوا قليلين جدًّا بالقياس إلى القوى العاملة التي تنشط بشكل حرّ ولحسابها الخاص.

هذه الوضعية جعلت حركة المجتمع طليقة وحرة. ماذا لو كانت الأمور معكوسة، حيث تقوم الدولة بكل الأنشطة

التعليمية والتجارية والصناعية بالإضافة إلى مسؤولياتها العدلية والأمنية؟ لا شك أن ذلك سيقتضي تضخمًا هائلًا في أجهزة الحكومة، وسيعني تحكمًا أكبر لأجهزتها بمفاصل الحياة العامة، **ومن المألوف في مثل هذه الحال الآتي:**

١ - إن احتياج أي حكومة إلى عناصر كثيرة لشغل الوظائف التي لديها، يجعلها تتساهل في التوظيف تحت ضغط الحاجة، ولهذا فإنها لا تدقق عند اختيار الموظف في الشروط التي ينبغي أن تتوفر فيه على مستوى الخلق والدين والأمانة، أو على مستوى الفاعلية والكفاءة وجودة الأداء، ومن هنا فقد تكوَّن انطباع عام لدى معظم الناس بأنَّ الوظيفة الحكومية هي مكان للاستجمام وأداء الأعمال عند أدنى المستويات، ولهذا فإنه لا بأس في أن يكون أجرها أقل من أجر الوظيفة في القطاع الخاص.

وإذا أضفنا إلى هذا ما يشيع في كثير من البلدان الإسلامية من استخدام (الوساطة) والشفاعة والقرابة وسيلة للتوظُّف، ظهر لنا الضرر البالغ الذي يترتب على تضخم الأجهزة الحكومية، وهذا - بالطبع - لا ينفي وجود موظفين حكوميين على أعلى مستوى من النزاهة وحسن الأداء. وقد دلَّت دراسة أُجريت على بعض الموظفين في إحدى الدول العربية على أن الموظف الحكومي لا يبذل من الجهد إلا بمقدار نصف ساعة يوميًّا!.

٢ - حين تتصدَّى الدولة لكثير من المهام والمسؤوليات، فإنها تحتاج إلى أعداد كبيرة من الكفاءات والقيادات التي تتولى إدارة مؤسساتها ومشروعاتها الكثيرة، وهذا يجعلها في مواجهة أزمة كبرى هي ندرة العناصر الممتازة في المجتمع، وهذه الندرة أو الأزمة ليست جديدة لا عندنا ولا عند غيرنا، فكما أن أكثر الناس لا يكونون شاكرين وعادلين وورعين ورعاة للحقوق فكذلك لا يكون أكثرهم أصحاب قدرات وكفاءات عالية.

وقد روي أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يدعو في آخر حجَّة حجَّها حين كان في عرفات قائلًا: « اللَّهم لقد كبرت سني، ووهنت قوتي، واتسعت رعيتي، فاقبضني إليك غير مفرِّط ». إن اتساع الرعية مع وهن القوة كان يشكل عبئًا عظيمًا على الرجل الكبير (عمر)؛ لأن اتساع مهام الدولة كان يتطلب أعوانًا للخليفة، تتوفر فيهم المواصفات التي يريدها هو، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير حتى في القرن الأول الهجري حيث خيار هذه الأمة، ويدلُّ على هذا ما روي عن عمر أيضًا من أنه دخل على نفر من الصحابة، وسألهم عن أي شيء يتحدثون، فقالوا: نتمنى، وذكر كل واحد منهم أمنيته، فقال عمر: أمّا أنا فأتمنى أن يكون عندي ملء هذا البيت رجالًا من أمثال سعيد ابن عامر الجمحي، فأستعين بهم على تصريف أمور المسلمين.

أما حين تتطلب الحكومة عددًا محدودًا من الموظفين، فإنها

تستطيع أن تجد بين المتقدِّمين للتوظف عندها عددًا جيدًا من الأكفاء الأخيار. في الحكومات المتضخِّمة بالموظفين تكون سيطرة العناصر الممتازة على العناصر الفاسدة والشريرة محدودة بسبب كثرة الأشرار وقلَّة الأخيار، وهذا ما تعاني منه أمة الإسلام في السواد الأعظم من بلدانها وحكوماتها!.

٣ – شهد القرن العشرون تجربة كبرى في مسألة حلول الدولة في محلِّ المجتمع، والاستيلاء على صلاحيَّاته ومهامه وأنشطته، وتلك التجربة هي ما جرى في المعسكر الشيوعي والاشتراكي، فقد بدا واضحًا كيف يمكن للدولة أن تحاول بلع المجتمع وتهميشه، لكن ذلك لم يتم فقد ضاع المجتمع حين فقد دوره في بناء الحضارة ومعالجة المشكلات المتنوعة، وفسدت الدولة بسبب تضخُّمها واحتكار المسؤوليات والسلطات لديها.

وأنا أقول: إنَّ الدولة أشبه بأعضاء البدن، حيث إن العضو حين يصاب بالعطب فإنَّه في كثير من الحالات يُصاب بالتضخُّم، كما هو الشأن في فشل القلب والكبد، وكما هو الشأن مع كلِّ الكدمات التي يمكن أن نصاب بها. وحين أخفقت التجربة الشيوعية / الاشتراكية وجد أصحابها أنهم أصبحوا من غير دولة ولا مجتمع، وهذا أسوأ ما يمكن أن يقع!.

٤ – لم تكن الدولة الإسلامية حاضرة في الوعي الإسلامي

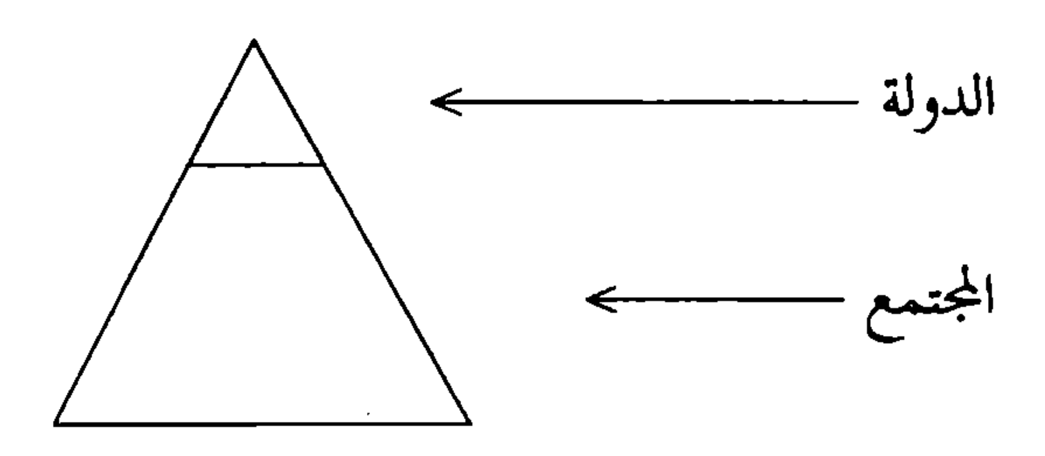
لدى الصحابة - رضوان الله عليهم - إلا بوصفها أداه تستخدمها الأمة في إدارة شؤونها، أي لم تكن الدولة تمثّل قيمة خلقية منفصلة عن الدور الذي يمكن أن تقوم به، والخدمات التي يمكن أن تقدمها للأمة، وعلى مدار التاريخ كان الولاء الذي يقدمه المسلم متجهًا نحو الدين وجماعة المؤمنين، وليس نحو الحكومة، وما ذلك إلا لترسيخ محورية المبدأ والمجتمع في حياة المسلمين.

ومن الملاحظ أن الإنسان ينفر بطبعه من ممارسة أي سلطة عليه، ولهذا فإنه لا يبتهج للحضور القوي لموظفي الحكومة إلا في حالات قليلة مثل حماية الممتلكات وتحقيق العدالة وأعمال الإغاثة...

وانطلاقًا من كل هذا فإنه يمكن القول: إن المذهبية الإسلامية في شأن الدولة والمجتمع تتجه إلى أن يكون المجتمع هو الذي يشكّل البنية الأساسية، وعنه يصدر معظم الأعمال والأنشطة البنّاءة. أمّا الدولة، فيكون وجودها بقدر الحاجة. وفي هذا وذاك معيار واضح أن المجتمع الفاضل هو الذي يقوم بحلّ شؤونه مع أقل احتياج ممكن للدولة، وكلما زادت حاجة المجتمع إلى حضور الدولة ومساعدتها دلّ ذلك على ترهُّله وفساده.

وقد عبَّر أحد المفكرين عن هذا المعنى بقوله: «المجتمع وليد فضائلنا، والدولة وليدة عيوبنا». أما الدولة الفاضلة

فهي الدولة التي تدير شؤون مجتمعها بأقلّ قدر ممكن من القوّة والسلطة والشدّة. ودورها الأساسي هو دور قيادي إشرافي تنظيمي في المقام الأول. أما التنفيذ فهو من مهمات المجتمع. وتقوم الدولة - على حد رأي ابن خلدون - بالأشياء التي يعجز عنها المجتمع فقط، وذلك حتى لا تتضخّم، وتتعرّض بالتالي للتحلّل والفساد. والشكل التالي يصوّر موقع الدولة من المجتمع:



الدولة تقود وتُشرف وتخطط، والمجتمع يبادر ويعمل وينفذ خطط الدولة، لكنه في الوقت نفسه يملك حقّ الولاية على نفسه، ويحاسب المقصّر والمسيء عبر الأجهزة والمؤسسات الشعبية والرسمية المستقلّة.

٥ - السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يقوم المجتمع بمعظم الجهد الحضاري، وكيف يطرح المشروعات النهضوية الكبرى؟

الجواب سهل، وهو يكمن في مبادرة المجتمع إلى تنظيم

نفسه على نحو يمكِّنه من القيام بواجباته الحضارية والخدمية الكثيرة والمتنوعة. والحقيقة أن تعقيد الحياة المعاصرة وتزايد متطلبات الحياة الكريمة، يتطلبان من المجتمع المسلم أن ينشئ لكل قضية ولكل خدمة مؤسسة أو عددًا من المؤسسات اللاربحية والمؤسسات الخيرية: مؤسسات إغاثية ومؤسسات للدعوة، وأخرى للصحة ورابعة للبيئة وخامسة للتعليم، وسادسة للإصلاح... ويتفرع عن كل مؤسسة كبرى عدد كبير من المؤسسات الصغيرة. وتقوم فلسفة هذا التوجه على الاعتقاد بأن طاقات الدولة مهما عظمت هي في النهاية محدودة، والتكاليف المنوطة بها كثيرة، على حين أنَّ المجتمع يمتلك طاقات وإمكانات هائلة جدًّا، ولهذا فإنَّه يستطيع تقديم الكثير الكثير. إنَّ المجتمعات الإسلامية هي الأبطال الحقيقيون الذين شيدوا حضارة الإسلام، وهي اليوم قادرة بإذن اللَّه – تعالى – على أن تكرِّر التجربة بشرط وعيها بالإمكانات العظيمة التي في حوزتها.

مجلة الرابطة

* * *

بيئة النهضة

تحدَّثت فيما سبق عن أن البيئة المواتية للنهضة هي البيئة التي يكون فيها دور الحكومة هو دور الإشراف والتنظيم والرقابة، أما الدور البنائي الأساسي والشامل، فإنه يلقى على كاهل المجتمع؛ وذلك لأن المجتمعات تملك طاقات هائلة، وكثير منها - مع الأسف - غير مستثمر، **ولعلي في هذه الكلمة أحاول على قدر الإمكان تسليط الضوء على هذه القضية المهمة.**

١ - يشكل العمل الاجتماعي الخيري في الرؤية الإسلامية بابًا عظيمًا من أبواب التقرب إلى اللَّه - تعالى -، ويظهر ذلك من خلال النصوص الكثيرة في صوره وأشكاله المختلفة على نحو ما نجده في تفريج الكربات عن المسلمين، وفي إطعام الجائعين وكفالة اليتامى والأرامل، وعلى ما نجده في زيارة الأصدقاء وعيادة المرضى وقضاء حاجات المحتاجين..

ومن هنا فإن الجهد الذي يُبذل في سبيل إصلاح المجتمع الإسلامي وتحسين أوضاع المسلمين يشكل استجابة لأمر اللَّه - تعالى - كما يشكِّل نوعًا من النجاح في الابتلاء المكتوب علينا، ومع وضوح هذا المعنى وتألُّقه في أذهان كثير من المسلمين إلا أننا لا نجد ما يخدمه ويرسخه في السلوك

على مستوى التربية الأسرية وعلى مستوى التوجيه في وسائل الإعلام وفي المدارس؛ والدليل على هذا قلّة المؤسسات الخيرية والمبادرات والأنشطة الطوعية لدينا، ويظهر ذلك جليًا عند مقارنة الأعداد المنخرطة في الأعمال الإغاثية في العالم العربي - مثلًا - مع الأعداد في الولايات المتحدة الأميركية، كما يظهر في الفرق الشديد بين حجم الأموال الذي يجمع هناك لصالح العمل الخيري وبين الأموال التي يتبرَّع بها العرب!.

إنَّ مصيرنا في المجتمع المسلم مصير واحد، وينبغي أن نربِّي صغارنا على هذا الأساس، فالإنسان المسلم مطالب بمساعدة إخوانه المسلمين على الصلاح والاستقامة، كما أنَّه مطالب بأن يكون صالحاً ومستقيمًا في ذاته؛ وهو مطالب بالمحافظة على أموال المسلمين وأعراضهم ودمائهم ومساندتهم لنيل حقوقهم تمامًا كما أنَّه مطالب بالمحافظة على دمه وعرضه وماله... وهذا ينبغي أن يكون واضحًا وحاضرًا في أذهان الآباء والأمهات والمربِّين والمربِّيات.

٢ - إن العمل الخيري بكلِّ صوره وتجسيداته هو أداة لتهذيب النفس وتطهير الأخلاق وأداة للسمو بالروح، ونحن نحتاج إلى تأكيد هذا المعنى اليوم على نحو قويٍّ وجاد، حيث يزداد التمحور حول المنافع الشخصية والمصالح الخاصة، وتنمو معاني الأثرة على حساب روح الإيثار، وقد

أشار القرآن الكريم إلى تأثير الاهتمام بالآخرين والتضحية من أجلهم في فلاح الإنسان؛ حيث يقول - سبحانه -: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]. إن علاقة المسلم من مجتمعه تتمثل في المقولة المحكمة: « أنا لمجتمعي ومجتمعي لي » حيث يقدم المسلم المعونة لإخوانه، وينتظرها منهم؛ وإن أساس كل أعمال الإحسان واحد، هو الاهتمام بالآخرين والحرص على راحتهم وسعادتهم، ونحن نحتاج إلى تنمية هذه الفضيلة في نفوس النشء عن طريق التربية والتعليم والإعلام...

٣ - حين تمضي الأمم في طريق النهضة، فإنها تقدّر الأعمال النهضية، وتشجع كل أولئك الذين يشكلون إضافات حقيقية إلى مجتمعاتهم، والحقيقة أن الثناء على الناس وتحفيزهم على فعل الخير والإشادة بإنجازاتهم، تخرج أكرم وأنبل ما في النفوس من المعاني، وتوفر لهم الوقود الروحي الذي يحتاجونه في الاستمرار في العطاء والتضحية. وفي هذا الإطار فإنَّ من المهمّ أن نقيم الاحتفالات التكريمية، وأن نطلق أسماءهم على المشافي والشوارع والمدارس والجامعات والمراكز الثقافية والاجتماعية، وأن ندرّس سِير أولئك الذين تنازلوا عن جزء من أموالهم وأوقاتهم وجهودهم من أجل إسعاد الآخرين وحلّ

مشكلاتهم، ولنا قدوة حسنة في هذا في رسول اللَّه ﷺ حيث قال: « **إن من أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكنْ أخوَّة الإسلام، لا تُبقيَنَّ في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر** » [١].

وحين ساهم عثمان رضي الله عنه مساهمة كبيرة في تجهيز جيش العسرة، سُرَّ رسول اللَّه ﷺ سرورًا عظيمًا، وقال: « **ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم**، مرتين » [٢]. نحن نريد للأجيال الجديدة أن يجدوا قدوات ومنارات واضحة في الخير حتى يقتدوا بها؛ وفي التعريف بمن عمل الخير، وفي زيارة منشآته ومشروعاته تعزيز وتدعيم قوي جدًّا لذلك.

٤ - قد أبدع سلف هذه الأمة في تنويع المؤسسات الخيرية وفي سدِّ حاجات الفقراء المعدَمين، وقد تجلى ذلك على نحو خاص في المؤسسات الوقفية الكثيرة والمنتشرة في كلِّ أصقاع العالم الإسلامي، ولا يتَّسع المجال هنا لاستعراض فنون صالحي هذه الأمة في ذلك، ويكفي ما ذكر من أنَّ أحد أهل الخير أوقف في دمشق دارًا لرعاية القطط العمياء وإطعامها، وأحدهم أوجد وقفًا اسمه (وقف الزبادي) حيث يتم إعطاء (زبدية) للخادم أو الغلام إذا كسرت (الزبدية) التي انطلق بها لشراء بعض السوائل من السوق

---

(١) متفق عليه.

(٢) حديث حسن رواه الترمذي.

لأهله، وذلك من أجل حمايته من العقوبة! كما أنَّ أحد المحسنين في طرابلس أجرى جراية (مرتبًا) لشخصين يطوفان على المرضى في مستشفى في طرابلس الشام، ويتحدَّثان بحديث يوحيان من خلاله إلى المريض بأن حالته الصحية في تحسُّن مستمر! إن حاجاتِ الناس إلى من يساعدهم على لأواء الحياة، حاجاتٌ نامية ومتزايدة بسبب ارتقاء الحياة الحضرية وارتفاع أسعار الخدمات المختلفة، ولعلَّ من جملة ما نحتاج إليه الآتي:

- جمعيات ومؤسسات ومشروعات تهتمُّ بحاجات الفقراء والأيتام والأرامل والعاطلين عن العمل وذوي الاحتياجات الخاصة، وإنَّ حاجات كثير من هؤلاء لا تقتصر على الطعام والدواء والمسكن، وإنما تمتدُّ إلى الرعاية التربوية والنصح والتوجيه والتدريب على المهن الجديدة، والمساعدة في توفير فرص العمل. وإن الله ﷻ يبارك في خيرات الأمة وأرزاقها، ويدفع عنها الكثير من الشرور بسبب العناية بهذه الفئات الضعيفة على نحو ما نجده في قوله ﷺ: « **ابغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم** »[1].

- لن تنهض الأمة من غير العناية بأولئك الذين وهبهم الله قدرات عقلية استثنائية، ممن اصطلحنا على تسميتهم

---

(١) رواه مسلم وغيره.

بـ (الموهوبين) حيث إن هذه الفئة من المتفوقين عقليًا، تستطيع قيادة المجتمع والارتقاء به إذا ما علمناها ودربناها على نحو ممتاز، وفي هذا الإطار نجد أنَّ تكاليف التعليم الجيد في ارتفاع مستمر، وإن كثيرًا من النوابغ والأذكياء لا يجدون من ينفق عليهم ليدْرسوا في مدارس وجامعات متميِّزة، مما يؤدي إلى وأد موهبتهم في مهدها. ومن هنا فإنَّ كل مدينة من مدننا في حاجة إلى هيئة خيرية تأخذ على عاتقها توفير الدعم الإرشادي والمادي للمتفوِّقين، وهذا دائمًا ممكن إذا وُجد المبادرون، ووجد أولئك السباقون المحترفون في سدِّ الثغرات وإقالة العثرات.

– نحن على صعيد العمل الخيري نحتاج إلى هيئات ومؤسسات خيرية متخصصة في تقديم التوجيه للأسر ومساعدتها في تربية أبنائها وحلِّ مشكلاتها الداخلية، وقد صار هذا ممكنًا أكثر من أيِّ وقت مضى حيث يتنامى الوعي بأهمية النهوض بالأسرة، كما أنَّ الأدوات التي يمكن استخدامها في ذلك في نمو مطرد.

سوف نقطف الكثير من الثمرات، ونحقق الكثير من النجاحات إذا استطعنا تنمية فضيلة الاحتساب في نفع المسلمين وفضيلة الاهتمام بهم.

* * *

العقل المهمَّش

نعمة الدماغ والعقل من أعظم النعم التي امتنَّ اللّٰه - تعالى - على بني الإنسان، وكثير مما ينعم به البشر من منتجات وأدوات مدين للاستخدام النشط للعقل.

ومن اللافت للنظر أنَّ القرآن الكريم لم يتحدث عن الدماغ ولا عن العقل ولا الفكر، حيث لم ترد هذه الكلمات فيه، وإنما ما يدل على فضيلة تشغيل العقل من خلال التفكّر والتدبُّر والتفقُّه، وكأنَّ الخالق - جلَّ وعلا - يريد منَّا أن ندرك أنَّ الميزة الأساسية التي في حوزتنا، لا تكمن في أنَّ لنا أدمغة ذكية وعقولًا جبارة، وإنما تكمن في استثمار تلك العقول وتحريكها عن طريق النظر والتبصُّر والتذكُّر والتأمُّل، وفهم الجذور والأسباب وإدراك العلاقات والخصائص والميزات للأشياء التي نحتكُّ بها أو نستخدمها.

قال أحدهم في الحاسب الآلي: إنه أذكى وأغبى آلة صنعها الإنسان في العصر الحديث، وهذا صحيح إلى حدٍّ بعيد، فالحاسبات الآلية لا تستطيع إدخال تحسينات جوهرية على البرامج التي تشتغل عليها، إنها حين تزوَّد بمعلومات خاطئة، فإنها تنتج معادلات خاطئة، وتتوصل إلى تحليلات غير صحيحة ولا دقيقة.

ونستطيع أن نقول شيئًا من هذا عن العقل الإنساني، فهو على ما لديه من إمكانات هائلة إلا أنَّ من السهل خداعه وتضليله، وإذا لم يُغذَّ بالمعلومات والأفكار والمفاهيم الجيدة، وعلى نحو مستمر، فإنه ينعزل عن تيار الحياة شيئًا فشيئًا، تمامًا كما يجري لمسنٍّ يتراجع سمعه وبصره على نحو مستمرٍّ، إنه في كل يوم يمرُّ عليه، يتناقص إدراكه لمحيطه، ويتناقص تفاعله معه. **ولعلي أشير في هذا السياق إلى الملاحظات التالية:**

١ - لا يكفي الذكاء الخارق لجعل العقل حيًّا وناميًا وفاعلًا، فعلى مدار التاريخ كانت الأرض تعجُّ بذوي العقول الذكيَّة وأصحاب المقدرات الذهنية الفذَّة، لكن التاريخ نفسه يشهد أنَّ كثيرًا من الأذكياء لا يملكون أي استنارة عقلية ولا رؤية صافية.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوضعية -وضعية العطالة العقلية - حين قال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

إن هؤلاء كانوا أضلَّ من الأنعام لأنَّ لهم عقولًا عاطلة عن العمل، فلا فهم ولا فقه ولا تأمل ولا استنباط بخلاف

البهائم التي لم تُرزق القدرة على ذلك؛ بل إن القرآن الكريم يخبرنا أن العلم أيضًا غير كافٍ لحيوية العقل ونموّه كما هو شأن الرجل الشقي (بلعم بن باعوراء) الذي آتاه اللَّه علمًا من علم الأنبياء الذي أنزله في كتبه، فترك العمل بآيات اللَّه بسبب خضوعه لأهوائه وشهواته: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

٢ – من أسباب تهميش العقل الإعراض عن القراءة ومجافاة الكتاب، والحقيقة أن العقل من غير معرفة هباء، إنه مثل رحًى تدور دون أن يكون فيها حَبٌّ تطحنه، ومثل حاسب آلي ممتاز لم يتم تزويده بأي برامج، أو زوِّد ببرامج رديئة؛ ولم يكن الإعراض عن التزوّد من العلم خطرًا على عقل الإنسان كما هو اليوم، حيث إن المعرفة تتضاعف كل عشر سنوات تقريبًا؛ والعيش الكريم في زماننا يتطلّب درجة عالية من المعرفة والعديد من المهارات العقلية والتنظيمية.

ويجب أن نعترف أن معظم مدارسنا وجامعاتنا أُخفقت على نحو مخيف في تحبيب الكتاب إلى نفوس الطلاب، مع أننا في زمان بات فيه التعلم الذاتي وطلب العلم مدى الحياة

شيئًا ضروريًّا بالنسبة إلى كل الساعين إلى التفوُّق والتميُّز. إنَّ العقل من غير معرفة يطرح طروحًا شكلية وسطحية، ويقوم بمعالجات عقيمة، ومهما صال وجال، فإنه يظلُّ أسيرًا لقيود الجهل وبعيدًا عن التعامل الراشد مع القضايا الدقيقة.

٣ - يوفر العيش في مجتمع الكثير من الهناء والكثير من التثقيف والتعليم، وهذا لا يحتاج إلى إثبات أو شرح، لكن من المهمّ أيضًا أن نشير أنَّ لكلًّ مجتمع أعرافه وتقاليده وعاداته التي يدافع عنها ببساطة وعزيمة، لكن المشكل أن العادات والتقاليد تتشكَّل على امتداد أجيال عديدة، كما أنها تتشكل بطريقة غير واعية، وكثيرًا ما تكون خاطئة أو غير منطقية، لكنها على كل حال تؤطِّر عمل العقل، وأحيانًا تعطّله، حيث إنَّ كثيرًا من الناس يظنُّون أنَّ آباءهم وأجدادهم كانوا على دراية واسعة بالحياة، وأن محافظتهم على عاداتهم وتقاليدهم ونقلها إلى الأبناء والأحفاد دليل على صلاحها وأهميتها.

ومن ثم فإن عددًا كبيرًا من أصحاب العقول المهمَّشة مصابون بما سماه مالك بن نبي - رحمه اللَّه تعالى - مرض (الآبائية) إنهم غير قادرين على الحكم على القديم أو محاكمة الجديد، ولذا فإنهم يستسلمون للموروث الثقافي الشعبي، ويقاومون من أجله أي تغيير أو تجديد.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المشكلة الكبرى في

العديد من آياته، منها قول الله - تعالى -: ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٧، ٧٨].

وقال - سبحانه -: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وفي ظلِّ التطوُّر المعرفيّ السريع والتغيُّرات المتلاحقة سيكون تجنُّب أيّ واحد منا للتهميش أمرًا نسبيًّا، لكن مع تحرير العقل من أغلال التقليد والتشوُّق إلى معرفة الجديد نستطيع الحصول على الكثير والمفيد.

* * *

ما بين العقل والعلم

ميَّز اللَّه - تعالى - الإنسان عن سائر المخلوقات بنعمة (العقل) ، فالإنسان هو الوحيد بين ما نعرف من خلق اللَّه، القادر على العمل خارج خطوط البرمجة الغريزية؛ إنه يخاطر ويغامر، ويحسب خطواته وعواقب أعماله... وهذا الإنسان مزوَّد في الوقت نفسه بالقدرة على التعلُّم واكتساب الخبرات والمهارات... ومن هنا نشأ التساؤل عن مدى الأهمية التي تحتلُّها الإمكانات الذهنية في النهوض بحياة الفرد إذا ما قارناها بدور المعرفة المكتسبة في تحقيق ذلك النهوض، إنه الجدل القديم في المفاضلة بين العقل والعلم.

والأدبيات الموروثة لدينا تُركِّز على دور العقل بوصفه الأساس المتين في عملية فهم الأمور، وتنظيم ردود الفعل عليها، أما العلم فهو رافد للعقل ومكمِّل له. وقد كانت نظرتهم صحيحة وذلك بسبب بساطة الحياة وسهولة تدبير أمور العيش من غير الحاجة إلى قدر كبير من الخبرة والمعرفة.

وينبغي ألا ننسى في هذا السياق أمرين مهمَّين: الأول هو أنَّ انتشار الأمية على نطاق واسع يجعل الناس متشابهين إلى حدٍّ بعيد، فالجهل كالموت في إضفاء صفة التوحُّد، وفي هذه الحال يبرز دور أصحاب الملكات الذهنية الرفيعة، ويجدون

أنفسهم مسيطرين على مجالس السمر والصلح والمشاورة...، فسرعة البديهة والذاكرة القوية والخيال الخصب تأبى إلا أن تمنح أصحابها تفوُّقًا فوريًّا على الأشخاص العاديين.

أما الأمر الثاني فهو أن القدر المتاح والمنظَّم من المعارف الحياتية والمعاشية كان محدودًا للغاية إذا ما قورن بما هو متوفر الآن، حيث تشير بعض الدراسات إلى أن المعرفة البشرية تتضاعف كل اثنتي عشرة سنة إلى خمس عشرة سنة! ومن هنا فإن دور العلم في حياتنا المعاصرة يتعاظم يوميًّا في كل مجالات الحياة.

لن تصبح الإمكانات الذهنية عديمة الفائدة في أيِّ حال من الأحوال، ولا يقول بهذا أحد، لكن دورها في الإبداع والاختراع وتوليد الأفكار صار اليوم أقل أهمية، وربما يصبح في الغد أقل وأقل.

إن اللَّه ﷻ وزَّع الذكاء على الأفراد بالتفاوت والتفاضل، أما على مستوى الأمـم فقد وزَّعه - سبحانه - بالتساوي، فليس هناك شعب، نسبة العبقرية بين أبنائه تصل إلى (٣٠٪) كما أنه ليس هناك أمة أو شعب نسبة الغباء لدى أبنائه، تصل إلى (٣٠٪)، فالأمم في الإمكانات الذهنية الوهبية الفطرية متقاربة إلى حد بعيد، إذن لـماذا نرى أممًا تُنتج وتُبدع، وتسجل سنويًّا عشرات الألوف من براءات الاختراع، على

حين أننا نرى شعوبًا ومجتمعات لا تُحسِن سوى فتح الصناديق المستوردة من الخارج، بالإضافة إلى التنافس في الاستهلاك والنهم الشديد في اقتناء الكماليات؟

الجواب على هذا السؤال يكمن في اكتشاف دور المعرفة المنهجية في الإبداع والاكتشاف والتقدُّم. إنَّ الواقع العالمي يشير إلى أنَّ الأمم الأكثر إبداعًا واختراعًا والأكثر ثراء أيضًا هي الأمم التي تنفق أكثر من غيرها على البحث العلمي بوصفه أداة لاستخدام المعارف المتوفِّرة وأداة للعثور على صيغ وحلول جديدة، وهذا يؤكِّد مرَّة أخرى أنَّ معاناة القراءة والكتابة والبحث في مخلوقات اللَّه - تعالى - واستكناه السنن والنظم التي بثَّها في هذا الوجود... هي التي تساعد الناس على الإبداع وليس درجة الذكاء الوهبي العالي الذي حظي به بعض الأفراد.

إنَّ العقل مهما كان عظيمًا، فإنَّ قدرته على الارتقاء بالأمم ستظلُّ محدودة، ما لم يقم الناس بإنشاء المدارس والجامعات التي تقدم تعليمًا ممتازًا، وإنشاء المؤسسات البحثية والتدريبية، وتنفق على كل ذلك بسخاء وأريحية، هذه هي تجربة العالم من حولنا. قد شبه بعضهم (العقل) بـ (الرحى) التي كانت تستخدم في طحن الحبوب في البيوت، كما شبه المعارف التي في حوزة الواحد منا بالحبوب التي توضع في الرحى؛ ومن الواضح أنَّ الرحى مهما كانت عظيمة وفذَّة لا تنتج لنا أيَّ

دقيق ما لم نضع فيها شيئًا تعالجه، وتطحنه، كما أن الرحى لا تستطيع إنتاج دقيق جيِّد من قمح فاسد ألقيناه فيها، ولا تستطيع أيضًا أن تمنحنا دقيقًا من غير جنس الحبِّ الذي أخذته منا. هكذا العقل العظيم حين نزوِّده بمعارف ضحلة أو مغلوطة أو منسوخة، فإنه لا يستطيع توليد الأفكار العظيمة ولا تأسيس المنهجيات المحكمة، ولا حل المشكلات العويصة، إن الموج دائمًا من جنس بحره.

الرسالة التي أودُّ إيصالها، هي أن الذي يحدد الكثير من مآلات أوضاعنا لن يكون مرتهنًا للذكاء والنبوغ وإنما للتعليم الممتاز والمعرفة الراقية والبحث العلمي الكثيف؛ وإن أمام كل أصحاب الذكاء العادي فرصًا قوية جدًّا لأن يصبحوا أعلامًا ينفع اللَّه - تعالى - بهم الأمة في أمور دينها ودنياها، لكن بشرط ألا يحتقروا أنفسهم، وبشرط أن يتعبوا في تثقيف عقولهم، ويتخذوا لأنفسهم أهدافًا عظيمة يكرِّسون حياتهم كلها من أجل تحقيقها.

* * *

البحث أبو الإبداع

إذا دقَّقنا النظر في الموروث من ثقافتنا الشعبية وفي السائد منها، فإننا نجد أن معظم الناس يربطون بين الإبداع والذكاء على نحو حصري، فالأذكياء مبدعون، والمبدعون أذكياء، ومن حرم الذكاء، فإنه وإن تعب، وبذل الجهد، فإنه لا يرتجى منه الكثير، ولا يستطيع لفت النظر إلى إنتاج متفوِّق! في المقابل فإنَّ الناس يستغربون ممن شهدوا له بالذكاء إذا لم يكن مبدعًا!.

وهذه الأشكال من الربط ليست صحيحة ولا سديدة، وهي قائمة على عدم إدراك جيِّد لقدرات العقل وعدم إدراك جيد أيضًا لانثناءات الواقع وغموض السنن والعلاقات التي تنتظم الأشياء. **ولعلي أحاول إزالة الالتباس حول هذه المفاهيم على نحو موجز وسريع:**

١ - إن تمجيد الناس للذكاء الفطري والإمكانات العقلية المتفوِّقة، نابع من قلَّة المعارف المنظمة والمتعلِّقة بجوانب الحياة المختلفة، وحين يضمحلُّ العلم تبرز إمكانات العقل، ويصبح أصحاب الذاكرة القويَّة والخيال الخصب وسرعة البديهة متميِّزين على أقرانهم وزملائهم؛ لكن بعد أن صار لدى البشرية هذا الكمُّ الهائل من المعارف المتراكمة والموزعة على مسافات محدَّدة، صار الإبداع والاختراع والكشف عن

الحقائق مدينًا للمعرفة والبحث العلمي الموجَّه، وقد أعرب (أديسون) والذي يعدُّ أعظم مخترع في القرن العشرين عن هذه الحقيقة حين قال: « العبقرية (١٪) إبداع والباقي عَرَق جبين » أي إن المنتجات والمخترعات الجديدة مدينة بنسبة (١٪) للعبقرية والذكاء، ومدينة (٩٩٪) للجهد البحثي الذي يبذله العالِم وللتجارب التي يُجريها.

إن قدرة الذكاء على اكتشاف العلاقات بين الأشياء محدودة جدًّا إذا لم تتوفر المعرفة الكافية والمفاهيم الجيدة التي يمكن للعقل أن يشتغل بها وعليها؛ وقد قال أحد الباحثين: « إنَّ الذكاء لا ينفع الذين لا يملكون سواه شيئًا ».

٢ - إن اللَّه - جلَّ وعلا - وزَّع الذكاء على الأفراد بالتفاوت والتفاضل، لكنه وزَّعه على الأمم والشعوب بالتساوي، فنسب العباقرة والعاديين، ومن عندهم نوع من التخلف العقلي، موحَّدة بين الأمم أو متقاربة جدًّا، ولكن الذي نراه هو أنَّ هناك شعوبًا تبدع، وتخترع، وتصنع، وتطور، كما أنَّ هناك شعوبًا تحسن فقط الاستهلاك، وهي ليست عاجزة عن الإبداع فحسب، وإنما هي عاجزة أيضًا عن التقليد في بعض الأحيان، لأن تقليد الأشياء المعقَّدة، يحتاج إلى بحث وإلى معرفة.

وهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدلُّ على أنَّ الذي يصنع

الفرق بين الشعوب المبدعة والشعوب المهمّشة أو المستهلكة أو المتفرجة - هو البحث وليس الذكاء لأنَّ الفوارق في الذكاء بين الشعوب ليست موجودة.

٣ - إن من طبيعة العقل البشري أنه لا يدرك حقائق الوجود دفعة واحدة، وإنما على سبيل التتابع، فالصورة المثالية أو النهائية لأي مصنوع من المصنوعات ليست موجودة لدى أي مصنع في أي مكان من العالم. والجميع يحاول الاقتراب من تلك الصورة رويدًا رويدًا، وهم يتبعون في ذلك طريقًا واحدًا، هو البحث العلمي: الأساسي منه والتطبيقي.

ومن هنا فإن كل المصانع الكبرى والمتوسطة في العالم تمتلك مراكز علمية للبحث والتطوير، وتنفق أموالًا طائلة على ذلك لأن التجديد في منتجاتها وابتكار المزيد من الميزات، هو السبيل الوحيد المتاح أمامها لتفادي الخروج من السوق، واكتساب مستهلكين إضافيين.

إنَّ اكتشاف الدواء الواحد قد يكلِّف نحوًا من مليار (دولار) ، يتم إنفاقه على البحث والتجريب، كما أن التطوير الموسَّع لسيارة فخمة مثل (المرسيدس) يكلِّف نحوًا من مليار ونصف المليار (يورو). وهذا كلُّه يؤكِّد أنَّ كلَّ الأشياء المدهشة والتي تنتزع إعجابنا هي وليدة البحث والتجريب، وليست وليدة الذكاء والذهنية المتفوِّقة.

٤ - تقرير هذه الحقيقة يعني شيئًا مهمًّا بالنسبة لنا جميعًا، وهو أن تقدم أي بلد يظل في حيز الممكن إذا أنفق المال المطلوب للبحث والتطوير، كما يعني أن الأمم التي تصنّع وتخترع اليوم لا تتمتع بأي ميزات إضافية على صعيد الذكاء والموهبة والمقدرة العقلية، وانطلاقًا من هذا أود أن أؤكد على أن أمة الإسلام في حاجة ماسَّة إلى اعتماد البحث العلمي بوصفه الأداة الوحيدة لفهم مشكلاتنا والأداة الوحيدة أيضًا للتعامل مع تلك المشكلات.

على مدار التاريخ كنا نتصوّر مشكلاتنا عن طريق التصوُّر الذهني المجرَّد، وعن طريق الأحاسيس والانطباعات، ونقدِّم لها الحلول بالطريقة نفسها، وقد ثبت عقم هذا الأسلوب وعجزه الظاهر. إنَّ كل المؤسسات والهيئات والجهات تستطيع تخصيص جزء من ميزانيّتها للإنفاق على البحث العلمي، بغية توفير الجهود والتمكُّن من تحقيق الأهداف.

وعلى سبيل المثال فإنَّ لدينا جهات كثيرة تستهدف تحقيق درجة حسنة من (الحياة الطيبة) للناس، وإنَّ عليها حتى تنجز شيئًا مهمًّا في ذلك أن تتعاون في إنشاء مركز بحثي كبير من أجل فهم ما يسبب الأذى النفسي للناس، وفهم ما يسبب لهم الارتياح والطمأنينة على المستوى النظري، ثم محاولة فهم الواقع الفعلي للناس عن طريق الاستقراء والإحصاء وتوزيع الاستبانات، وبعد ذلك يصار إلى تعميم نتائج الدراسات،

وتثقيف الناس بها على قدر الوسع والطاقة، كما يتم وضع الخطط المختلفة من أجل تعزيز مسببات الهناء، ومقاومة أسباب الشقاء.

إن مراكز البحوث توفر الأرقام والمعلومات الموثوقة، وهذه تشكل مادة حية وجيدة لكل الساعين في الخير والساعين إلى الإصلاح، ومن غير تلك المادة سيكون ما يقوله الدعاة والمصلحون شديد العمومية أو مفتقرًا إلى الدقة والموضوعية.

إن البحث العلمي ليس ترفًا، ولا من قبيل المشتهيات، إنه يشكل ضرورة حيوية من أجل التقدم والنجاح في عالم شديد التعقيد، وكثير المخاطر والمشكلات، ومن المهم أن نعي ذلك قبل فوات الأوان.

* * *

الجوُّ التربوي

التربية من الأعمال الشاقة والمعقَّدة، وتحتاج إلى صبر ومثابرة، لكن الأجر عليها كبير، والآثار المترتبة عليها عظيمة. التربية ليست في جوهرها عملية تعليمية، وسوف نخطئ إذا تعاملنا معها على هذا النحو. التربية عملية غير واعية، وتعتمد على التفاعل بين الصغار وبين الذين يربونهم. إنَّ الطفل يتشرَّب المفاهيم والأخلاق والعادات والتقاليد السائدة في أسرته ومدرسته بطريقة لا تخلو من الغموض.

ومن هنا فإنَّ التقدُّم التربوي يعتمد أساسًا على تحسين المناخات التي ينشأ فيها الأطفال وتحسين وعينا بحاجات الطفولة المتعددة. هذا التحسين يحتاج إلى جعل كثير من المفاهيم التربوية في بؤرة الشعور، وذلك عن طريق صياغتها بشكل واضح، وعن طريق التأكيد المستمرّ عليها.

أنا أعتقد أنَّ كلَّ أسرة، وكل مدرسة بحاجة إلى أن تبلور لنفسها ما يمكن أن يسمى (الدستور التربوي) وهذا الدستور ينبغي أن يشتمل في مواده ومقولاته على المعاني والمفاهيم والأخلاق والسلوكات التي تودُّ الأسرة تعميقها في نفوس أبنائها، وتلك التي تخشى من نسيانها أو إهمالها، وهذا يعني أن الدستور التربوي الذي أقصده لن يكون موحَّدًا، وإن كان

سيشتمل على العديد من المواد المشتركة. **ومن أجل تقريب الفكرة أودُّ أن أقدِّم نموذجًا لما يمكن أن يكون دستورًا تربويًّا للأسرة المسلمة، ونموذجًا آخر لما يمكن أن يكون دستورًا تربويًّا لمدرسة:**

أ - نموذج دستور تربوي لأسرة:

- نحن أسرة مسلمة تسعى جهدها لأن تكون ملتزمة بتعاليم الدين الحنيف.

- أسرتنا متضامنة ومتكاتفة، وتسعى إلى تطويق أي خلافات تنشب بين أفرادها.

- قراءة القرآن وذكر اللَّه - تعالى - وقيام الليل من الأمور التي نحرص عليها جميعًا.

- لصلاة الفجر في موعدها أولوية مطلقة عند تحديد أوقات نومنا.

- الهدوء وعدم رفع الصوت وتجنب الإزعاج سمة من سمات منزلنا.

- لا يرضى أحد من أبناء هذه الأسرة بغير النجاح والتفوُّق.

- على كل فتاة وفتى في المنزل ترتيب غرفته الخاصة قبل مغادرتها.

- نحاول دائمًا الاستفادة القصوى من الوقت، ونساعد بعضنا على ذلك.

- لا مكان في بيتنا للعبارات النابية والألفاظ البذيئة.

- الإحسان إلى جيراننا وتحمل أذاهم جزء من تقربنا إلى اللَّه تعالى.

- نظافة المنزل والمحافظة على أثاثه مسؤولية الجميع.

- ندعو بالأدعية الواردة عند الدخول إلى المنزل وعند الخروج منه.

- نحرص على جلسة أسبوعية مختصرة للتذاكر في شؤون الأسرة.

- لا نغتاب أحدًا، ولا ننشغل بشؤون الآخرين إلا بخير.

- يحاول كل من في الأسرة أن يفاجئها ببعض الأشياء السارة.

ب - نموذج دستور تربوي لمدرسة:

- نحاول دائمًا أن نعمل بما تعلَّمناه.

- نسعى جميعًا إلى جعل مدرستنا متميِّزة.

- نحن في مكان محترم، ونتصرَّف بطريقة محترمة.

- تعاوننا هو السبيل إلى تفوُّقنا.

- أحافظ على أثاث مدرستي كما أحافظ على أثاث بيتي.

- ليست المدرسة ميدانًا للتنافس في إظهار الغنى.

- الالتزام بالنظام هو الشيء الذي لا نتنازل عنه.

- نؤدِّي واجباتنا المدرسية بأفضل طريقة ممكنة.
- علاقتنا مع أساتذتنا ترجمة لعلاقتنا بآبائنا.
- لكل جهد مضاعف ثمرة مضاعفة.
- نبرهن من خلال سلوكنا في المدرسة على الجهد الذي بذلته أسرنا في تربيتنا.
- من خلال المشاركة والمحاورة في قاعات الدرس نحصل على أفضل ما لدى أساتذتنا.
- نسعى أن نجعل من مدرستنا مصدرًا للكثير من المسرَّات.
- مثابرتنا في طلب العلم، هي هديتنا لبلادنا.
- نبحث عن الحقيقة بكل ما أوتينا من قوة.
- نكبر من خلال مدرستنا، وتكبر مدرستنا من خلالنا.

هذه المقولات والمفاهيم والشعارات، يمكن أن تُكتب على لوحات وبأشكال جميلة، وتُعلَّق في أماكن مختلفة في البيوت والمدارس، ويمكن طبعها على بعض الصحون والكؤوس في المنازل، وطبعها على الحقائب والدفاتر المدرسية. وهذه هي الخطوة الأولى. أما الخطوة الثانية والمهمة، فتتمثَّل في وجود أنشطة وبرامج ومشروعات ولقاءات، يتم من خلالها تنفيذ هذه المفردات الجميلة وتعزيزها وإثراؤها.

سوف نبذل الكثير من الجهد في تحسين الأجواء التربوية

إذا عرفنا أنَّ كثيرًا مما نرجوه من صلاح أبنائنا متوقِّفٌ على ما يعايشونه في بيوتنا ومدارسنا، وليس على ما يسمعونه من نصائح وعظات.

* * *

التفكير الناقد

كثيرًا ما يجفل وعيُنا من النقد والنقَّاد، ونقف موقف الحذر من أولئك الذين يكشفون عن المفارقات المقلقة في حياتنا العامة؛ ولست أدري لماذا يحدث ذلك: هل لأن النقد يكسر إلفنا للأوضاع السائدة، ويطالبنا - بالتالي - بالتغيير؟ أو لأن النقد ينطوي على نوع من الإدانة لنا بسبب إبرازه للعيوب والأخطاء؟ أو لأن النقد يمنح صاحبه تفوقًا فوريًا على أقرانه، على حين أن التفكير البنائي يحتاج إلى فترة طويلة حتى تظهر ثماره، ما يدفعنا إلى الغيرة من النقاد؟ أو أنَّ هناك أسبابًا أخرى لنفورنا من النقد وأهله؟

على كل حال، فإن الذي نعتقده هو أنَّ الخدمة التي يقدِّمها التفكير النقدي على صعيد محاصرة الأخطاء والشرور - لا تُقدَّر بأي ثمن. والذي أودُّ أن أنبِّه عليه في البداية هو أنَّ النقد لا يعني التركيز على السلبيات والمعائب والنواقص فحسب، كما قد يُتوهَّم وإنما يعني الكشف عن مساحات الجمال والإبداع في العمل أو النشاط، كما هو الشأن في النقد الأدبي، حيث إن الناقد لا يتحدَّث عن هفوات الشاعر أو الناثر فحسب، وإنما يتحدَّث أيضًا عن الأفكار العظيمة في العمل الأدبي، وعن الصور البيانية الرائعة.

وهذه بعض الملاحظات في مسألة التفكير النقدي:

١ - التفكير النقدي هو أرقى أنواع التفكير، وهو في الحقيقة أحد ألوان التفكير الإبداعي، وهو على درجة عالية من الأهمية على طريق التغيير والإصلاح. وأنا أدعو إلى التدرُّب الشخصي عليه، كما أدعو إلى تدريب الناشئة على مهاراته؛ وإن كلَّ واحد منا سيكون في إمكانه ممارسته إذا عرف قواعده وأصوله وصقل معارفه بالمرانة والمراس.

لا شكَّ أن التفكير النقدي متصل بما لدى المرء من قدرات ذهنية، لكن يمكن للمرء - إن لم يستطع أن يكون ناقدًا من الطراز الرفيع - أن يباشر النقد عند المستوى العادي، كما يمكنه أن يقف الموقف الموضوعي ممن يمارسون النقد.

إننا حين نفكر ونخطط ونحلم، نقوم بكل ذلك على نحو طليق وسخيٍّ، لكن حين نأتي للتنفيذ نجد أننا مقيدون بقيود الزمان والمكان والإمكانات المتاحة، وأحيانًا تتدخَّل رغباتنا وأهواؤنا وقصورنا التربوي، مما يؤدي في نهاية المطاف إلى وجود مفارقة - كبيرة أو صغيرة - بين ما نقول ونطلب ونتمنى وبين ما هو موجود على أرض الواقع؛ وهذا هو الذي يجعل النقد شيئًا مشروعًا ومطلوبًا.

الناقد الجيد الذي نحتاج إليه في كل مجالات الحياة، هو ذلك المفكر الذي يرى المفارقة أو المسافة الفاصلة بين ما هو

كائن وبين ما يمكن أن يكون، أو ينبغي أن يكون؛ لأن هذه المسافة هي جماع العلل والمشكلات والأزمات التي تعاني منها الأمة، إنها المسافة الفاصلة بين المرض والعافية والتدهور والازدهار، لكن لا بدَّ من القول: إن رؤية الناقد للصورة التي ينبغي، أو يمكن أن نصير إليها هي رؤية اجتهادية ظنية، كما أن رؤيته للواقع تصدر عن قناعة شخصية ومن زاوية خاصة، فهي أيضًا اجتهادية، وينبني على هذا أن تكون الرؤى النقدية عبارة عن رؤى اجتهادية غير ملزمة، لكن الناقد يُضيء المناطق المظلمة في واقعنا ورؤانا، ويثري الحلول المطروحة والاجتهادات المتوفرة، وهذا ليس بالشيء القليل.

٢ - فطر اللَّه - سبحانه - الصغار على حبِّ التساؤل والتشوُّق إلى فهم كل ما يحيط بهم، وكأنَّ ذلك يشكِّل الخطوة الأولى على طريق ممارسة التفكير الناقد، لكن معظم الناس لا يتعلمون فنَّ طرح الأسئلة، ولا يملكون الخبرة والمعرفة الكافية لرؤية المفارقات والتقصيرات، وبالتالي فإنهم يألفون الواقع الرديء ويكابدون المشاق، دون أن يهتدوا إلى سبيل الخلاص!

لنشجع أطفالنا وطلابنا على طرح الأسئلة المتنوعة، ولنحاول أن نصل معهم إلى أجوبة مقنعة وصحيحة قدر الإمكان؛ وقد قال أحد الحكماء: « قد منحني اللَّه - تعالى - ستة رجال أقوياء يخدمونني، ويعلمونني كل شيء، وهم أصل

كل ما أعرفه: (ماذا)، و (كيف)، و (متى)، و (لماذا)، و (أين)، و (مَنْ) ».

إن رجاله الذين يتعلم منهم هم هذه الأدوات الاستفهامية التي تحيط بأي ظاهرة، وتوفر مدخلًا لتسليط نور الوعي على أي قضية أو مشكلة.

إن الطرح المنظم للأسئلة حول قضية (تراجع الهمّ الدعوي) على سبيل المثال، سوف يساعدنا على زيادة الوعي بأبعاد هذه القضية: مظاهرها، حجمها، الأشخاص أو الفئات أو التيارات التي حدث لديها التراجع أكثر من غيرها، أسباب التراجع، علاج التراجع، مدته، تكاليفه وأدواته، العقبات التي تواجهه...

إن التساؤل حول هذه الأمور سيساعدنا على فهم القضية وعلاجها، لكنه إلى جانب ذلك سوف يكشف عن شيء خطير هو أن المعلومات الموثوقة والدقيقة التي في حوزتنا حول هذه المسألة هي شبه معدومة، وهذا يؤكد على أهمية جعل التساؤل أساسًا في نقد أي قضية من القضايا.

٣ - يكون التفكير النقدي تفكيرًا إبداعيًّا بامتياز حين يركِّز على إيجاد البدائل؛ والحقيقة أنَّ من النادر أن نجد مفكِّرًا ممتازًا ينقد ظاهرة من الظواهر، ويكشف عللها الكامنة دون أن يكون في ذهنه بعض الأفكار حول ما ينبغي عمله وإحلاله

محلَّ الأشياء المعطوبة، فإذا وجدنا من ينقد ويجأر بالشكوى من سوء الأحوال في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو التعليم، ثم لم يقدِّم لنا أيَّ حلول أو علاجات أو وصفات إصلاحية، فهذا يعني أنه يقوم بعملية احتجاج مبهمة، ينفِّس فيها عمَّا في صدره ليس أكثر!.

أفضل النقد هو ذلك الذي يتم في ظلال البناء، وإذا تباطأت حركة اليد، فلا بدَّ أن تتباطأ حركة الفكر، فدعوتنا إذن إلى شيئين: عمل يتبعه نقد، ونقد يتبعه تغيير وإصلاح.

* * *

قرن الإسلام

هل يمكن أن يكون القرن الخامس عشر الهجري هو قرن الإسلام؟ وهل هناك دلائل تشير إلى إمكانية هذا؟ وما السبيل إليه؟ هذه أسئلة أطرحها على نفسي على الإخوة القراء، لعلنا نعثر على أجوبة مقنعة لها.

لا يخفى أن الإسلام - ومعه المسلمون طبعًا - يتعرَّض لهجمة عالمية منظمة وواسعة، وقد اشتدت هذه الهجمة في السنوات الأخيرة على ما هو مشاهد، فهل هذا دليل على أنَّ الإسلام يقترب من أن يكون القوى الكبرى التي تغيِّر ملامح الثقافات العالمية، وتخلخل المعادلات والموازين الموجودة؟ أظنُّ ذلك، وقد صدق من قال: إذا رأيت الناس يرمونك من خلف بالحجارة، فاعلم أنك في المقدمة. نحن نملك ملايين الشباب بل عشرات الملايين المتطلعين إلى عمل شيء ينهض بالأمة، ويُعلي من شأن الدين، لكن قد يكون كثير منهم غير عارف بالوسيلة أو الطريقة التي يمكنه اتباعها من أجل تحقيق ذلك. فهل نستطيع مساعدتهم في هذا الشأن؟

من المهم أن نكون على وعي بأننا لا نستطيع إعزاز الدين من غير إعزاز أهله، كما أننا لا نستطيع بناء أمة أقوى من مجموع أفرادها، ولهذا فإن طموحنا إلى أن يكون هذا القرن

هو قرن الإسلام يتطلب أن تقوم أعداد جيدة من الشباب المسلم (لا تقل نسبتهم عن ٥٪ من مجموع الأمة) بإدخال تحسينات جوهرية على حياتها الشخصية وأنشطتها العامة، وذلك من خلال القيام بالأعمال المتميزة وتقديم النماذج الفذَّة.

إن التحدي الذي يواجهنا على هذا الصعيد يتمثَّل في أن يحاول كلٌّ واحد من أهل الغيرة على مستقبل هذا الدين وهذه الأمة بالقيام بعمل يرفع سوية الأخلاق والسلوكات والعلاقات السائدة في حياتنا العامة، وقد ورد في عدد من الأحاديث الصحيحة ما يومئ إلى أهمية شيوع الإنجازات الراقية، ففي حديث الثلاثة الذين ألجأهم المطر إلى غار - مثلًا - حثٌّ واضح على ذلك، حيث توسَّل كل واحد منهم بعمل فذٍّ وعظيم عمله في يوم من الأيام كي تنزاح الصخرة عن باب الغار، ويتمكنوا من الخروج على ما هو معروف ومشهور من أمرهم. وفي حديث الرجل الذي سقى الكلب بخفه، وحديث الرجل الذي كان يتجاوز عن المعسرين من عملائه وزبائنه، وحديث السبعة الذين يظلهم اللَّه - تعالى - في ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه.. وأحاديث أخرى كثيرة من هذا القبيل.

أقول: في كل هذه الأحاديث إشادة واضحة ببعض الأعمال المتميزة. واللافت فيها أن العمل أو الموقف الذي نال

الثناء والجزاء الحسن قد يكون كبيرًا في حجمه ونفعه وآثاره، وقد يكون كبيرًا في دلالاته وإشاراته ولوازمه، وعلى سبيل المثال فإن ما يسديه (الإمام العادل) للأمة من نفع وما يبذله من جهد يُعد شيئًا هائلًا بكل المقاييس، أما التميُّز الكبير في دلالاته، وليس في حجمه، فإنَّه مثل ذلك الذي ذكر اللَّه - تعالى - خاليًا ففاضت عيناه، حيث إن بكاءه يعبِّر عن حالة شعورية راقية، قوامها الإحساس بمعية اللَّه - تعالى - وقربه وحبّه والخوف منه والشوق إليه، وهذه المعاني حين ترد على قلب، فإنها كثيرًا ما تدلُّ على بعد صاحبه عن المعاصي وإكثاره من الطاعات.

ويشبه هذا في عظم الدلالة ما فعله ذلك الرجل الذي دعته امرأة ذات حسن وجمال وحسب ليقترب منها في حرام، فاستعصم، وأعلن أن خوفه من اللَّه - تعالى - يمنعه من ذلك، كما يشبهه في الدلالة ما فعله الذي نزع خفَّه، وسقى به الكلب اللاهث من الظمأ...

نحن اليوم نستطيع أن نثري الأمَّة بالأعمال الكبيرة بحجمها والكبيرة بدلالتها وإشاراتها من خلال المبادرات الفردية والشخصية. لدينا نخبة مثقَّفة ملتزمة واسعة اليوم، ومتزايدة - بحمد اللَّه - ويستطيع كثير من أفرادها أن يتخيل أن حياته عبارة عن مشروع أنشأته أمة الإسلام، واستثمرت فيه، ثم أوكلته إليه ليديره، ويتابعه، ويبذل فيه من ماله ووقته

وجهده، وقد قبل هذه الوكالة، وشرع يحاول في جعل ذلك المشروع ناجحًا ومثمرًا، بل يحاول أن يجعل منه مشروعًا نموذجيًا بين المشروعات المناظرة، كما فعل عشرات الألوف من أبطال الأمة ومجاهديها وعلمائها ودعاتها وقادتها وتجّارها ومعلّميها وإداريّيها... هذا التخيُّل وهذا القبول لجعل الذات مشروعًا عظيمًا، يتطلّب التفكير والتخطيط والعزيمة الصارمة والرؤية الواضحة، كما يتطلب التفاؤل والثقة باللّه - تعالى - ومعونته والاحتساب لديه والاستقامة على أمره؛ وهذه كلُّها ممكنة وقريبة التناول حين نتخيل النتائج العظيمة لمثل هذا التوجُّه.

وتستطيع شريحة واسعة جدًّا من أبناء الأمَّة أن تقوم بأعمال صغيرة ذات دلالة كبيرة، وأنا هنا أودُّ أن أشير إلى فكرة مهمة، هي أن الأمة الفقيرة ليست تلك التي لا تملك الكثير من المال، لكنَّها الأمة التي يتلفَّت صغارها وكبارها، فلا يرون إلا رجالًا من الدرجة الرابعة، ولا يجدون نماذج رفيعة حيَّة يقتدون بها، ويقبسون من روحها وسلوكها ما يشكل قسمات حياتهم.

ونحن نستطيع معالجة هذه المسألة جزئيًّا عن طريق القيام بالأعمال الصغيرة ذات الدلالة الكبيرة، إننا نريد من كل واحد منا أن يفكِّر هل يمكن أن يقدِّم نموذجًا في الحفاظ على الوقت أو النهم في القراءة، أو الحرص على صلاة الجماعة

أو في الصدق أو التواضع أو خدمة الإخوان أو برِّ الوالدين أو الغيرة على حرمات اللَّه - تعالى - أو نصح المسلمين؟... وحين يتمكَّن (٥٪) منا تمثل هذه الفكرة وتطبيقها ثم نشرها والدعوة إليها، فإنني أعتقد جازمًا أنَّ وجه العالم سيتغيَّر تغيُّرًا واضحًا، وبذلك نكون قد عملنا عملًا كبيرًا جدًّا على صعيد جعل هذا القرن قرن الإسلام، هذا هو التحدي فأين الذين يقبلونه؟

* * *

إدارة التعانف

إن اللَّه – سبحانه – قد فطر الإنسان على الاستئناس بأخيه الإنسان، كما فطر الخلق ورتَّب شؤونهم على احتياج بعضهم إلى بعض، لكن من الثابت أيضًا أن اجتماع الناس يولِّد العديد من التوترات والصدامات وذلك بسبب اختلاف أمزجتهم وأفهامهم وأهوائهم ومصالحهم...

ومن وجه آخر فإن من الثابت أيضًا أنَّ التقدُّم الحضاري الذي يشهده العالم اليوم لم يهذِّب الطباع على النحو المأمول، ولم يقرِّب المسافات العقلية والروحية والنفسية الفاصلة بين الناس، حتى إنَّ أحد الباحثين يرى أنَّ التقدُّم الحضاريَّ هو تقدُّم في الطلاء والشكل أما في الأعماق فإن هناك وحشًا كاسرًا يتربص، وينتظر الفرصة للفتك والافتراس، والحقيقة أنَّ لدينا شواهد لا تحصى وفي كل مكان من العالم على صحة ذلك.

ويبدو لي أن الناس على مستوى العامة كانوا يدركون هذه الحقيقة أفضل من إدراك بعض الخاصة لها حيث إننا نجد أنَّ الهمَّ الذي يسيطر على (الثقافة الشعبية) ليس الإنجاز ولا الرؤية المنهجية أو الموضوعية أو وضع الأمور في نصابها... وإنما تحقيق أعلى درجة من التضامن الأهلي والتلاحم الأخوي،

وذلك بغية سدِّ الطرق والأبواب في وجه الصدام والتعانف والعدوان.

انطلاقًا من كل ما سبق فإن مصطلح (إدارة العنف) يعني الاعتراف بوجوده كامنًا وظاهرًا، كما يعني نوعًا من الاعتراف بالعجز عن محوه والقضاء عليه، حيث لا سبيل سوى إدارته والتعامل معه والسعي إلى التخفيف منه قدر الإمكان وإلى إبقائه تحت السيطرة. وإذا أردنا أن نستقصي التشريعات والآداب والإجراءات التي أقرها الإسلام وحفَّز عليها من أجل إدارة العنف - فإننا سنجد أمامنا الكثير الكثير مما يمكن أن نتحدث عنه، **فلا بأس إذن أن أشير على نحو خاطف إلى ما هو مهمٌّ منه، وذلك عبر النقاط الآتية:**

- امتنَّ اللَّه - تعالى - على قريش بما حباها به من الأمن بسبب مجاورتها لبيته العتيق فقال - سبحانه -: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ١ - ٤]. والأمن يوم القيامة وفي الجنة أحد موعودات اللَّه - تعالى - لعباده المؤمنين: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٩]. إن شرح قيمة الأمن والاستقرار والشعور بالهدوء والسكينة يفتح وعي الناس عليها ويحفزهم على المحافظة عليها، ويحملهم مسؤولية

رعايتها من خلال الاستقامة على أمر اللَّه - تعالى - والتأدُّب بآداب الشريعة الغراء.

- مدح النبي ﷺ الرفق والذي يعني اللطف وسهولة الخلق ويسر التعامل، فقال: « **ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه** » (١) وإن اللطيف اسم من أسماء اللَّه - تعالى - والرفق من محابِّه، قال - عليه الصلاة والسلام -: « **إن اللَّه رفيق يحبُّ الرفق، ويرضاه، ويعين عليه ما لا يعين على العنف** » (٢). إن كلَّ الأشياء يمكن أن تؤدَّى بطريقة خشنة وعسرة وجافة، ويمكن أن تؤدَّى بطريقة لينة وسهلة وجميلة، وإنَّ على المسلم أن يجنح إلى الثانية؛ لأنها هي التي ترضي اللَّه - سبحانه - وهي التي تدلُّ على سموِّ الخلق ورقيِّ النفس.

ودعا - عليه الصلاة والسلام - لأصحاب الأخلاق والمعاملات والمواقف السهلة والسمحة بقوله: « **رحم اللَّه عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى** » (٣).

- إن من المتوقع دائمًا أن يقع الناس في الأخطاء

---

(١) رواه مسلم.

(٢) حديث صحيح أخرجه الطبراني وغيره.

(٣) رواه البخاري.

والتجاوزات من كل الأشكال والأنواع، وهذا يحفِّزهم على مقابلة الإساءة بالإساءة والعدوان بالعدوان لكن اللَّه - جل وعلا - يريد من عباده أن يكسروا هذه المعادلة الرديئة حتى لا يدخلوا في دوائر العنف التي قد لا يعرفون كيف يخرجون منها، ومن هنا جاء قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]. وقال - سبحانه -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوّٗا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

- إن الزحام يثير حفائظ الناس، ويزعجهم، ويُظهر ما لديهم من سوء كامن، وهذا بسبب أنَّ كلَّ واحد منا يرسم فضاءً وهميًا لنفسه على مستوى النظر وعلى مستوى اللمس، فإذا اعتدى أحد على ذلك الفضاء فإنه يشعر بالخطر، ولهذا فإنه ينزعج ويتأهَّب للدفع الذي يصل إلى القتل عند الحاجة.

ويبدو أنَّ رسم الفضاء الخاص والحيز الشخصي ليس خاصًا بالإنسان، بل إن الحيوان - أو بعضه - يفعل ذلك، فقد دلّ بعض الدراسات على أن بعض أنواع الأسماك تطلق روائح كريهة من أجل طرد الأسماك التي تدخل على ما تعدُّه مجالًا حيويًا لها! ومن هذا الأفق نفقه مغزى قول اللّه ﷻ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

* * *

إدارة التعانف

تحدثت في ما سبق عن بعض الآداب والتشريعات والإجراءات التي أقرها الإسلام، وحثَّ عليها من أجل تخفيف (التعانف) وإدارته والسيطرة عليه داخل المجتمع الإسلامي، **وسأذكر اليوم المزيد من ذلك بغية اكتمال الصورة:**

- بما أنَّ الذي يسبق كل تعانف بدني هو الكلام الذي يحمل طابع التحدي أو الإساءة أو السبِّ والشتم أو الاستهزاء... فإن اللَّه - جلَّ وعلا - حرَّم ذلك على المؤمنين، وشنَّع على فاعله، وذلك بغية سدِّ الذرائع وقطع الأسباب التي تحدث الجفاء، وتثير روح الانتقام، ولك أن تتأمَّل النصوص الكريمة الآتية:

يقول اللَّه - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال ﷺ: « **ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذِيِّ** » (١) وقال أيضًا: « **ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه** » (٢).

(١ ، ٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وقد تجاوز النهي ما يثير التعانف من الأذى المباشر إلى أمور تتمُّ عادة في غيبة الناس أو تتمُّ بطريقة سرية أو تكون عبارة عن شيء يتردَّد في الصدور على نحو ما نجده في التجسُّس والغيبة والنميمة وسوء الظن... إنَّ كل ذلك يفسد العلاقات بين الناس، ويكدِّر قلوبهم، ويدفعهم إلى أن يكونوا في وضعية عنيفة وعدوانية، والنصوص في كلٍّ هذا معروفة مشهورة.

- يلاحظ أنَّ التعاليم الإسلامية تحذر من أن ينزلق المسلم إلى حالة يمكنه فيها إيقاع الأذى البدني بأخيه المسلم، ونجد مثل هذا التحذير في قوله ﷺ: « **لا يُشرْ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار** » [١] وفي رواية لمسلم: « **من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه** ».

وفي حديث جابر بن عبد اللَّه ﷺ: « نهى رسول اللَّه ﷺ أن يُتعاطى السيف مسلولًا » [٢]. ويدخل في إطار الاحتراز من إيقاع الأذى البدني بالآخرين ما ورد من أحاديث وآثار في التعامل مع الغضب، حيث إن على الغاضب أن يخفِّف من غضبه من خلال الوضوء أو الاغتسال ومن خلال السكوت إذا كان يتحدَّث وهو غاضب ومن خلال الوقوف إن كان ماشيًا والجلوس إن كان واقفًا...

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

- إنَّ كثيرًا من التعانف الذي يقع بين الناس يعود إلى التعصُّب للرأي والمذهب والاتجاه... وإذا استعرضنا التاريخ الإسلامي فإننا سنقف على حقيقة محزنة، هي أنّ الناس أراقوا الكثير من الدماء انطلاقًا من تكفير أو تسفيه أو تفسيق خصومهم ومخالفيهم من أهل القبلة، ولو أنهم وقفوا الموقف الشرعي كما يصوِّره الفقيه لكفُّوا عن كثير مما فعلوه.

وقد قام بعض أئمة الهدى بكسر حدَّة التعصُّب من خلال محاولة عرض كلِّ أجزاء الصورة وبيان كلِّ جوانب القضية أو الحقيقة، على نحو ما نجده في سيرة سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ حيث إن من المعروف تاريخيًا أن (البصرة) كانت تتعصب على المستوى السياسي لعثمان رضي الله عنه أما (الكوفة) فإنها كانت تتعصب لعلي رضي الله عنه وقد كان سفيان يقول: « إذا ذهبتُ إلى البصرة حدَّثتُ الناس بمحاسن علي، وإذا ذهبتُ إلى الكوفة حدَّثت الناس بمحاسن عثمان »!.

إنّ الخلاف في أمور ظنِّية وفرعية واجتهادية هو أمر طبيعي وواقع في كلِّ العصور، والذي يتعصَّب لرأي اجتهادي جاهلٌ يحتاج إلى تعليم. أما إذا كان بعض المسلمين على الحقِّ الواضح القطعي الذي لا لبس فيه، فإن هذا البعض يشكِّل الفئة التي ينبغي أن يؤوب إليها من خالفها لأنَّ مخالفتها ضلالة، وقد ورد في هذا السياق قول عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: « الجماعة أن تكون على الحقِّ ولو كنت وحدك » وقد صدق،

فإنه إذا كان أهل حي أو قرية معرضين جميعًا عن إقامة الصلاة - مثلًا - إلا واحدًا منهم، فإنَّ ذلك الواحد هو الجماعة وأهل القرية أو الحيّ مفارقون للجماعة، وما ذلك إلا لأن ذلك الرجل على الحقّ القطعي الصريح.

- الظلم وهضم الحقوق والعدوان على الناس من أكثر ما يثير التعانف بين الناس. إنَّ كثيرًا من الناس مستعدٌّ لارتكاب جريمة قتل، وخيانة وطن، وتخذيل أهل... إذا شعر أنه وقع عليه ظلم فادح وعدوان صارخ على نفسه أو ماله أو عرضه، والقاعدة في هذا أنه لا يبقى مع الظلم شيء مقدَّس؛ ومن هنا جاءت النصوص الكثيرة التي تأمر بإقامة موازين العدل، وتنهى عن الظلم وتحذِّر من عواقبه.

وقد قال أحد المفكِّرين: صلاح الأمم بصلاح جهتين أو قطاعين: التعليم والقضاء، وفسادها بفسادهما. ونحن نلاحظ أن كثيرًا من البلدان الإسلامية عطَّلت إقامة الحدود، فأدى ذلك إلى اقتتال الناس وكثرة حوادث القتل بدافع الثأر، وما ذلك إلا لأنَّ القضاء هناك لا يحقِّق العدالة التي يريدها الناس والتي شرعها اللّٰه - تعالى - لهم.

* * *

إدارة التعانف

من طبيعة التديُّن تنمية حساسية الناس نحو الخروج على القيم والمبادئ السامية، ولهذا فإنَّ المسلم حين يقع في معصية، أو يقع منه عدوان على أحد من الناس، فإنَّه يشعر بالضعف وشيء من الندم، وإن لم يُحدث توبة، والحقيقة أنَّ الناس على نحو عام مفطورون على السعي إلى تحقيق مصالحهم مع أقل قدر من الخروج على مبادئهم، ولا نستثني أحدًا؛ حتى اللصوص فإنهم حين يدخلون بيتًا بقصد سرقة مال أو حلي أو متاع، فإنهم إذا حصلوا على ذلك لم يعمدوا إلى القتل، لأنه يشكِّل في نظرهم خروجًا على المبدأ، لا معنى ولا مسوِّغ له.

وفي المقابل يكون كثير من الناس مستعدِّين لارتكاب الجرائم الكبرى حين يجدون أنفسهم مهدَّدين بخطر كبير، أو يوضعون في ظروف معيشية قاسية جدًّا، وفي هذا السياق فإنَّ جزءًا مهمًّا من إدارة العنف يكمن في العمل الدؤوب من قبل الدولة ومن قبل الناس على توفير الحدِّ الأدنى من الكفاية المعيشية وشيء من الرفاهية، وذلك حتى لا تتكوَّن أو تظهر أمراض الاستئساد والخوف والخنوع من أجل الدفاع عن الوجود، حيث إنَّ الإنسان حين يجوع يتحوَّل إلى وحش كاسر بل أشد لأنَّ الوحوش إذا شبعت كفَّت عن الافتراس،

أما الإنسان فإنَّ الجوع يعلمه الافتراس الذي لا ينساه، ولو تحقَّقت له الكفاية. وهناك من الناس من إذا جاع تحوَّل إلى ذليل يقدِّم كلَّ التنازلات في سبيل الحصول على ما يقيم الأود، وفي الحالتين يفقد الناس ما يجعل منهم بشرًا أسوياء!.

وقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: « **اللَّهم إني أعوذ بك من الفقر والقِلَّة والذِّلة، وأعوذ بك من أن أَظْلِم أو أُظْلَم** » [١] وصحَّ عنه أنه قال: « **اللَّهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بئست البطانة** » [٢]. وصحَّ عنه أنه قال: « **اللَّهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى** » [٣].

شيء آخر يثير التعانف هو الازدحام على المال من أجل تحقيق الذات، وأقول ابتداء: إنَّ عصر الأشياء المجَّانية قد انتهى حتَّى الماء والهواء النقيّان سوف يجد الناس أنفسهم مضطرين إلى شرائهما، أضف إلى هذا أنَّ وسائل الدعاية والإعلان تصوِّر للناس أنَّ السعادة شيء يمكن الحصول عليه من خلال المال، بل تصوِّر لهم أنَّه لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال المال، وهذا دفع الشباب - على نحو أخص - إلى محاولة الحصول على أكبر قدر من المال بأي طريق كان، وهذا شيء يدعو إلى الأسى!.

---

(١) رواه أبو داود وغيره.

(٢) حديث حسن رواه النسائي وغيره.

(٣) رواه مسلم.

علينا ألَّا ننسى أنَّ الخوف من المستقبل وما يمكن أن تأتي به الليالي والأيام، ظلَّ على مدار التاريخ يحرِّض الناس على الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من المال، وقد قال ﷺ: « **لو كان لابن آدم وادٍ من مالٍ لابتغى إليه ثانيًا، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا الترابُ، ويتوب الله على من تاب** » [1].

إنَّ المال سيظلُّ يثير التعانف لأنَّ المطلوب منه سيظل أكبر من المعروض؛ ويخفِّف من الآثار السلبية لهذه الوضعية القيود والآداب والتوجيهات الشرعية في اكتساب المال وإنفاقه، لكن هناك شيء آخر يستحق الاهتمام، وهو أنَّ المال ليس وسيلة لقضاء الحاجات فحسب، ولكنَّه وسيلة لتحقيق الذات وشراء الوجاهة، ويشتدُّ الطلب على المال من أجل تحقيق ذلك حين يكون المجتمع فقيرًا في الأنشطة الدعوية والأدبية والاجتماعية.

إن الإنسان مفطور على السعي إلى الشعور بالامتلاء والغنى الداخلي، والمصدر الأساسي لذلك هو إحساس المرء بالإنجاح والعطاء غير المشروط والتضحية من أجل الآخرين... ويؤسفني القول: إنَّ المجتمعات الإسلامية باتت من أفقر مجتمعات العالم في الأنشطة الخيرية والأدبية والاجتماعية مع أننا نملك أعدادًا كبيرة جدًّا من الشباب الراغب في العمل للصالح العام، لكن انشغال الكبار بجمع الثروة إلى آخر لحظة

---

(١) متفق عليه.

في حياتهم حرم أولئك الشباب عمَّن يوجِّههم ويقودهم للقيام بأنشطة ومشروعات تعود بالنفع على العباد والبلاد!.

في كثير من الدول يقوم من يمكن أن نسميهم بـ (الشخصيات العامة) ومن حقَّقوا شهرة اجتماعية واسعة - يقوم هؤلاء بتأسيس الكثير من الأعمال الخيرية بعد إحالتهم للتقاعد، وتجد أنهم يبدؤون دورة جديدة في الحياة مستثمرين شهرتهم ووجاهتهم في جمع الأموال لصالح مشروعاتهم الخيرية ذات النفع العام، فهل نستطيع أن نتعلَّم منهم درسًا في هذا الباب؟.

* * *

إدارة التعانف

لا يخفى ذلك التقدُّم الهائل الذي حدث على صعيد العلوم الطبيعية، حيث تَوَفَّر للناس قدر هائل من المعارف والمعلومات الموثوقة، التي يمكن فعلًا اتخاذ الكثير من القرارات المعتمدة على معطياتها ومدلولاتها، لكن ذلك لم يحدث على صعيد علوم الإنسان؛ وذلك لأن كل ما يتصل بالإنسان يتصف بالتعقيد من جهة، ولأن المردود الاقتصادي المتوقَّع من وراء البحث العلمي في شؤون الإنسان ضئيل جدًّا من جهة أخرى.

والدراسات المتوفِّرة على قلَّتها النسبية تشير إلى أنَّ إثارة حفيظة الإنسان، وحمله على أن يسلك مسلك التعانف، ليس بالأمر الصعب، أي أن البنية العصبية والروحية للإنسان تُبدي هشاشة ظاهرة في الكثير من المواقف، حيث يتعكَّر المزاج، ويستعدُّ المرء للتوثُّب والمصاولة.

حين ترتفع درجات الحرارة في فصل الصيف عن الحدِّ المألوف ترتفع نسبة حوادث السيارات، وتكثر المشاجرات (الخفيفة) بين السائقين. وحين يزدحم المكان بساكنيه، وتزيد نسبة الاحتكاك بينهم عن الحدِّ الطبيعي، فإنهم يُظهرون الكثير من سوء الأخلاق. والمكان القذر والفوضوي يجعل ساكنيه يتبادلون فيما بينهم مشاعر سلبية وسيئة... يحدث كل هذا

خارج دائرة وعينا بسبب تخلُّف المعرفة الإنسانية بشؤون الإنسان وهذا أدى إلى أننا لا نعالج الأسباب التي تؤدِّي إلى التعانف، كما أدى إلى عدم تقديرنا التقدير الصحيح للعلاجات التي قرَّرها الدين الحنيف لأشكال التوتر، وكانت النتيجة استمرار العدوان واستمرار العنف، بل تصاعده في كثير من الأحيان. وقد تحدَّثت في المقالات الثلاثة السابقة عن بعض الأسباب وبعض العلاجات للظاهرة التي نحن في صددها، **وسأتحدَّث في هذا المقال عن المزيد من هذا أو ذاك عبر المفردات الآتية:**

١ – إنَّ كثيرًا من التعانف ينشأ بسبب إعجاب المرء برأيه ورأي حزبه وجماعته وقبيلته... حيث إنَّ من طبيعة الناس أن يذعنوا للحق الواضح الصريح ولو إذعانًا ظاهريًّا أو شكليًّا، لكنهم يرفضون ذلك في الأمور المختلف فيها، وهذا هو الصحيح، فإذا كنتُ أصدر عن رؤية اجتهادية، وتصدر أنت عن مثلها، فلماذا تفرض عليَّ رأيك، وتحرمني من حقِّ الاجتهاد، وإذا كنتَ تفعل ذلك، فلماذا لا أفعل أنا مثله، وأشيد برأيي؟ وهكذا يتحوَّل الاجتهاد من نعمة إلى نقمة، وإلى معترك للأقران!.

إن اللَّه – سبحانه – نهى الناس عن أن يمدحوا أنفسهم ويزكُّوها لما في ذلك من الإعجاب بها وتمهيد السبيل لاتباع أهوائها، حيث يقول ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٤٩]. وقال –

سبحانه -: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]. وتزكية النفس تشمل مديح الـخُلُق والسلوك والرأي والاجتهاد والأحساب والأنساب... وقد أخرج مسلم في صحيحه عن محمَّد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول اللَّه ﷺ نهى عن هذا الاسم، وقال: « **لا تزكوا أنفسكم، إن اللَّه أعلم بأهل البرّ منكم** »، فقالوا: بم نسميها؟ قال: « **سمُّوها زينب** ». إنه لا يريد أن يتخذ الناس من الأسماء بابًا لمديح الذات، فيفتحوا على أنفسهم أبوابًا للملاحاة والتلاوم كلما وجدوا فرقًا بين الاسم وسلوك صاحبه.

ويندرج في إطار الإعجاب بالذات واتباع أهوائها ما يساعد على ذلك من مديح الناس بعضهم لبعض، وقد ورد أنَّ رجلًا مدح رجلًا عند النبي ﷺ فقال رسول اللَّه: « **ويلك قطعتَ عنق صاحبك** - مرارًا - **إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا - واللَّه حسيبه ولا أزكي على اللَّه أحدًا - أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك** » [١]. ولم ينتفع كثير من المسلمين - مع الأسف- بهذا التوجيه الرشيد، فترى كثيرًا من القصائد الشعرية مشحونة بالإطراء والتهويل البعيد عن الحقيقة، وصار فنُّ المديح أحد الفنون الأثيرة لدى عدد كبير من الشعراء، مع أنَّ آداب العديد من الأمم والشعوب الغربية تكاد تخلو من المديح على نحو تام!.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده.

٢ - إن مما يساعد على تخفيف التوتر وسدٍّ بعض نوافذ التعانف التريث في إصدار الأحكام والتثبُّت والتبين قبل اتخاذ مواقف محدَّدة، وهذه قضية مهمَّة، فقد تقوم حروب باردة وساخنة بين قبائل وطوائف وبين هيئات وأشخاص بناء على ما يسمعه الناس من كلام الوشاة والنمَّامين، وإن تاريخنا وواقعنا حافلان بالقصص المحزنة والأحداث الأليمة التي وقعت بسبب الاستعجال في تنظيم ردود الأفعال على ما يقال هنا وهناك!.

والحقيقة أنَّ كثيرًا من الأخطاء الفادحة يقع بسبب الانطلاق من الظنون والأوهام وجدب المعطيات العلمية الموثوقة؛ وما أجمل قول اللَّه - تعالى -: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]. وقوله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

* * *

الانفتاح على مبادئ الحياة

فطر اللَّه - تباركت أسماؤه - مخلوقاته على طبائع وصفات محددة، فلكل حدث وكلِّ شيء وكلِّ مجال... طبيعته الخاصَّة به، والتي يجب التعرُّف عليها بعمق حتى نحسن التعامل معه ونحسن استثماره على أحسن وجه، بل ربما جاز لنا أن نقول: إنَّ لكثير من الأشياء طبيعتين: طبيعة في حال انفراده وطبيعة في حالة اجتماعه مع غيره؛ وإدراك الطبيعة الثانية أدقُّ وأصعب.

إنَّ الانفتاح على المعلومات والمفردات والمعطيات الجزئية يثري الثقافة الشخصية للإنسان، لكن الانفتاح على المبادئ وفهم الطبائع يساعد على بلورة الرؤى المنهجية والأفكار الكبرى، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى هذا النوع من الثراء الفكري؛ وقد قال أحد الحكماء: إن من يملك معلومة كمن يملك قطعة ذهبية، أما من يملك منهجًا، فإنه كمن وضع يده على مفتاح منجم ذهب!. وأنا لا أستطيع أن أتناول كل مبادئ الحياة لا في مقال ولا في كتاب، **وإذن فلأتحدث عن نماذج مما أعنيه لعلي أحرِّك الهمم نحو السعي إلى اكتشاف المزيد من المبادئ والطبائع:**

١ - إذا كان المرء قويًّا ذا نفوذ أو ذا مال أو ذا ميزات

خاصة جدًّا فعليه أن يخشى على نفسه من الكِبر والغرور والبغي والطغيان؛ القوة تجذب التجاوز وعبور الحدود، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى حيث قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧] وقال – سبحانه –: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧]. ولما كان فرعون ملكًا جبارًا خاف موسى وهارون عليهما السلام من طغيانه عليهم وبطشه بهم، فقالا: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه: ٤٥].

إنَّ القوَّة بكلِّ أشكالها تغري صاحبها بالعدوان لأنَّها توفِّر له شعورًا بالأمن من الإفلات، من العقاب، كما أنَّ المرء كلَّما كان أقوى كثر المحتاجون إليه، وكثرت مصالح الناس عنده، وهذا يوفر له فرصة التحكُّم بهم وظلمهم، وهذا يعني أنَّ على جميع الناجحين والمميَّزين وذوي المكنة والنفوذ أن يمارسوا نوعًا من الرقابة على أنفسهم حتى لا يقعوا في شكل من أشكال البغي والطغيان.

وفي المقابل فإنَّ الضعيف والفقير والعاطل عن العمل وكلَّ من يعيش في ظروف قاسية وصعبة، يكونون على حافَّة المذلَّة والإهانة والقبول بالظلم، وما ذلك إلا لشعورهم بالحاجة إلى الآخرين، وشعورهم بالعجز عن القيام بشؤونهم

ومتطلباتهم الشخصية على نحو مقبول، وعلى هؤلاء أن يتعلموا كيف يتخلَّصون من أوضاعهم أولًا، كما أن عليهم أن يتعلموا كيف يحمون أنفسهم من المهانة ثانيًا، وذلك من خلال الصبر والتعفُّف ومقاومة التسلُّط، والنظر إلى الكرامة الشخصية على أنها شيء لا يقبل المساومة.

٢ - الكم لا يكون إلا على حساب الكيف؛ وذلك لأننا نحن البشر محدودون في أعمارنا وإمكاناتنا ورؤانا وطاقاتنا الروحية، ولهذا فإننا لا نستطيع أن ننفق من رأسمالنا المحدود على ما نعالجه ونعانيه بشكل غير محدود، ولذا فلا بدَّ أن نختار بين التركيز على الكم أو التركيز على الكيف، حيث إن من الواضح أن المعلم - مثلًا - لا يستطيع أن يعتني بأربعين طالبًا تمَّ حشدهم في فصل دراسيٍّ عناية تماثل عنايته بطلابه العشرة أو الخمسة عشر.

والمؤلِّف الذي أخرج كتابًا في خمسة مجلَّدات خلال ثلاثة أعوام، لا يستطيع خدمة مسائله على مستوى عالٍ من التدقيق والتحقيق والنقد على النحو الذي يقوم به طالب الدراسات العليا حين يسلخ من عمره ثلاث سنوات في كتابة ثلاثمائة صفحة؛ وقد ورد في حديث (القصعة) ما يدلُّ على أنَّ المشكلة الحضاريَّة للأُمَّة ستكون مع الكيف، وليس مع الكم: « **أنتم يومئذ كثيرٌ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل** ».

ومن الواضح أنَّ الأمم التي تحقق الغلبة على غيرها ليست كثيرة الأعداد، لكن عنايتها بتعليم أبنائها وتدريبهم عالية جدًّا. التجربة الحضارية لأمتنا، تدلُّ على أنَّ الاهتمام بالكيف يجب أن يستولي على اهتماماتنا وخططنا المستقبلية.

٣ - كلَّما اتجهنا نحو الأصول والكليات وجدنا أنفسنا أقرب إلى الاتفاق ووحدة الرأي، وكلَّما اتجهنا نحو الفروع والجزئيات صار الاتفاق أمرًا عسيرًا، وصار التعاذر أمرًا لا مناص منه. والأمثلة تفوق الحصر، وعلى سبيل المثال فإن البشرية مجمعة على أهمية (بر الوالدين) بوصفه قيمة من القيم الإنسانية الكبرى، لكن حين نصير إلى التفاصيل والجزئيات والتطبيقات العملية، فإننا سنجد الخلاف في بعض مفاهيم (البر) داخل الأسرة الواحدة: الأسرة المسلمة والأسرة غير المسلمة.

إذا أخطأ والد أحدنا، فهل نصحُه من البر أو من العقوق؟ بعض الشعوب تعدُّ نصيحة الآباء نوعًا من العقوق، وشعوب أخرى ترى في ذلك مطلبًا شرعيًا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام كان ينصح أباه ويعظه، ثم تبرَّأ منه بسبب إصراره على الكفر. والبشرية متفقة على فضيلة (الصدق) وضرورة الالتزام به، لكن إذا كان الصدق سيؤدِّي إلى قتل نفس بريئة ظلمًا وعدوانًا، فهل نقول الصدق، أو يكون الكذب هو المطلوب؟ وإذا كان الكذب لن يؤدي إلى قتل

بريء لكنه سيؤدي إلى تفويت مصلحة مشروعة، فهل يكون الكذب جائزًا؟

وهكذا... إذا فهمنا هذا المبدأ من مبادئ الحياة، فربما نعمل على عدم طلب الإجماع في أمور فرعية، كما نعمل على مقاومة الاختلاف في الأمور الكلية.

* * *

الطمأنينة الاجتماعية

مهام أهل البصيرة الاجتماعية عديدة ومتنوِّعة، ولعلَّ من أجلِّها مراقبة توجُّهات المجتمع وفتح العين بقوة على الاختلالات الأخلاقية والسلوكية التي تحدث نتيجة التنمية السريعة والتغيرات المتلاحقة. الملاحظ اليوم تعرُّض شيء أساسي في حياتنا للنضوب، هو السكينة والطمأنينة الاجتماعية، وهذه الطمأنينة تتولَّد في الأساس من (الثقة) التي يتبادلها الناس في تعاملاتهم. تشكل الثقة جزءًا مهمًّا من رأس المال الاجتماعي والذي إذا اضمحلَّ فقد لا نستطيع استرجاعه إلا بعد أجيال عديدة.

وتلعب (العولمة) دورًا جوهريًّا في تراجع الطمأنينة والثقة الاجتماعية بما تشيعه من أخلاق (الصفقة) بما تنطوي عليه من المساومة والخديعة، وإبراز المحاسن، وإخفاء العيوب؛ والأداة التي تستخدم في ذلك هي فنُّ (الدعاية والإعلان) حيث ينفق العالم اليوم على الدعاية ما يزيد على خمسمائة مليار دولار سنويًّا!.

حين تثق بإنسان، فإنك تعتقد أنه متين الخلق وصادق وناصح، وغير خادع، وأعتقد أنَّ من المسؤوليات الأساسية للخطاب الإسلامي اليوم تقديم نموذج يساعد على تدعيم

الثقة الموجودة، واستعادة ما فُقد منها، وهذا النموذج يقوم على السعي إلى التزام الصدق بشكل مطلق، وخدمة الحقيقة والنصح الخالص للناس فيما يُصلح أمور دينهم ودنياهم. أدنى درجات الصدق يتمثل في موافقة كلام المرء لمعتقده، فإذا كان صانع الخطاب يعتقد أن الأمة تمر بمرحلة حرجة جدًّا، فعليه أن يجهر بذلك، ولو أنه بذلك قد يعرِّض نفسه لأن يوصم بأنه متشائم. وإذا كان يعتقد أن الجانب الروحي من حياة المسلمين يحتاج إلى عناية خاصة، فعليه أن يعلن ذلك، ولو كان بهذا سوف يثير عليه من يرى أن الحديث في المسائل الروحية كثيرًا ما يخفي وراءه نوعًا من الانحراف العقدي، وهكذا...

هناك إلى جانب هذا درجات من الصدق أسمى وأرقى، وهي تساعد على نحو قوي في تقوية الثقة وإنعاش الطمأنينة الاجتماعية، ومنها:

١ - الحرص على أن يكون الكلام مطابقًا للواقع، حيث إنَّ الناس حتى يثقوا بنا لا يحتاجون إلى الاطمئنان إلى أننا نتحرَّى الصدق في كلامنا فحسب، وإنما يحتاجون إلى شيء آخر، وهو الثقة بأننا حين نتحدَّث في أمر، فإننا نعرف عن أي شيء نتحدَّث، ونعرف مسؤولية الكلمة، ونتحسس الآثار التي تترتب على الخطاب الجماهيري الواسع الانتشار.

ويؤسفني القول في هذا السياق: إن كثيرًا منا يقرؤون الواقع قراءة متعجلة أو ناقصة أو سطحية، ولا يعرفون أنهم يفعلون ذلك، ومن ثم فإنهم لا يتهيبون إطلاق العبارات والكلمات الكبيرة!.

ومن الملاحظ اليوم أنَّ كثيرًا من الناس يهتمون بالاتساق الشكلي للتعبير بوصف ذلك جزءًا من (ثقافة الصورة) التي ترسخها الحضارة الحديثة على نحو واضح، وهذا كثيرًا مايكون على حساب عمق المضمون ودقَّة المعنى، وهذا يولِّد لدى الناس شعورًا بعدم الثقة بجدية ما يقال ومصداقيته.

٢ - حين يجد صانع الخطاب نفسه عاجزًا عن قول الحقِّ والإعلان عن الحقيقة، فإنَّ عليه حينئذ أن يسكت، حيث لا ينسب إلى ساكت قول. وأعتقد أن الحالة المثالية في مثل هذه الوضعية تكمن في الحرص على اختيار المجال الذي يستطيع فيه المرء أن يتحدث عن كلِّ أو جلِّ ما يريد. ولا ريب في وجود مشكلة في هذا؛ لكنه يظل أخفَّ ضررًا من أن يقول المرء ما لا يعتقد، أو يشوِّه الحقيقة، أو يولِّد لدى الناس انطباعات خاطئة.

٣ - يُبدي العقل البشري كثيرًا من الارتباك أثناء التعامل مع العبارات والجمل والكلمات التي تتحدَّث عن الكيف أو الصفة، وذلك بسبب عدم تمكُّن الإنسان من صياغة

مصطلحات وتعبيرات دقيقة وحاسمة في التعبير عن هذا الأمر، وعلى سبيل المثال فإننا حين نقول: إنَّ فلانًا كريم جدًّا، أو جبان أو حسن التدبير، فإننا نتحدث في الحقيقة عن معانٍ غائمة، وعن أشياء نسبية ولهذا فإن درجة اطمئنان الناس لتوصيفاتنا تظلُّ منخفضة، وقابلة للاهتزاز في أي وقت. والأمر معكوس تمامًا في حالة استخدام (لغة كمية) حيث إنَّ العقل يُبدي براعة نادرة في الفهم حين نتحدَّث عن الأعداد والمساحات والمكاييل والأحجام، ومن ثمّ فإنَّ بلاغة الرقم هي بلاغة العصر الحديث، وإذا أردنا للناس أن يثقوا بما نقول، فلنكثر من استخدام الأرقام الموثوق بها قدر الاستطاعة، مع الانتباه إلى ما يمكن أن نسميه (المتاجرة بالأرقام) بسبب قابليتها الشديدة للتزوير والتزيد والمبالغة.

شيء آخر يعزز الطمأنينة الاجتماعية، ويدعم التلاحم الأهلي، هو عمل الخير، حيث إنَّ روح التطوُّع والعطاء المجاني حين تصبح سمة ظاهرة في المجتمع، فإنها تخفِّف من حدَّة الشعور بالمنافسة، وحدَّة الشعور بارتهان الناس للمصالح والمنافع الشخصية، والذي كثيرًا ما يدفع إلى الكذب والخديعة والقطيعة، ومن هنا نجد النصوص الكثيرة التي تحثُّ الإنسان المسلم على بذل المعروف وقضاء حاجات إخوانه ومساعدة ذوي الظروف الصعبة والاحتياجات الخاصة، كما نجد

النصوص التي توضِّح الثواب العظيم لفاعل الخير، ومقدِّم الخدمة المجانية.

بناء الثقة الاجتماعية يتطلَّب حرصًا أقل على الأمور المادية، واهتمامًا أشد بالمعنويات والاعتبارات الأخلاقية، وهذا يشكِّل تـحدِّيًا كبيرًا لنا جميعًا.

* * *

التأثير الهامشي

قد نكون في هذه الأيام في حاجة ماسَّة إلى إنعاش (التفكير العلائقي)، وهو نوع من تشغيل الذهن، يستهدف اكتشاف العلاقات التي تربط بين الظواهر التي تشغل بالنا، أو تؤثر في حياتنا. ويبدو لي أن هذا اللون من التفكير يميل إلى التعقيد، ونتائجه غير حاسمة، ولهذا فإن الناس يعرضون عنه مع أنَّ له أهمية بالغة في فهم الأحداث والوضعيات. ولعلَّ الاعتماد على السنن هو أفضل وسيلة لفهم الروابط والتأثيرات الكائنة في هذا الوجود.

وسنحاول في هذا المقال تقديم نموذج يشرح هذه الفكرة، ويقرِّبها من أذهان الإخوة القراء. إننا إذا نظرنا في مختلف الظواهر والوضعيات الملموسة، فسنجد أن لكل واحدة منها وجودين: وجودًا بوصفها كيانًا متكامل الأركان والقسمات والحدود، ووجودًا بوصفها أجزاء من منظومات أكبر وأوسع.

إنّ العلاقة بين الزوجين - مثلًا - هي جزء من علاقة أوسع، هي علاقة أفراد الأسرة: الآباء والأمهات والأبناء... وعلاقة الأسرة، جزء من علاقات أهل الحي، أو أهل القرية، وهذه الأخيرة تشكِّل جزءًا من علاقات المجتمع في قطر من الأقطار... والفقر الموجود لدى شخص من الأشخاص هو

جزء من الفقر السائد في بلدته، وفقر أهل بلدته جزء من الفقر السائد في إقليمه أو قطره، وهذا جزء من محيط أوسع، إلى أن نقول: إن فقر أيٍّ شخص في العالم هو جزء من فقر العالم جميعه.

يتشكَّل الوجود المستقل للظواهر والوضعيات من ملامحه وحيثياته الدقيقة والخاصة... أما الوجود العلائقي، فهو مدين للملامح العامة للظاهرة، والقوانين التي تحكمها على مستوى الكون، ومدين للتأثير الذي يتركه المحيط فيها... وقد فطر اللَّه ﷻ الخلائق؛ بدءًا بالفيروس وانتهاء بالمجرَّات - على السعي الدائب نحو الاستقلال، وذلك من خلال المحافظة الشديدة على المقومات والخصائص والميزات، لكن بما أن كل شيء هو جزء من سلسلة أو منظومة، وبما أن لكل منظومة وكل سلسلة طبيعتها وعلاقاتها، فإنَّ سعي الخلائق إلى الاستقلال سيظلُّ منقوصًا ومحدودًا، كما أنَّ الممانعة التي تبديها الأشياء في سبيل المحافظة على كينوناتها، تظل غير كاملة بسبب تأثير محيطها ومنظوماتها...

والتأمل في هذه الشؤون المنظمة غاية التنظيم يوقفنا على حقيقة كبرى، هي أن كل ظاهرة وكل وضعية تخضع لنوعين من العوامل المؤثِّرة: عوامل داخلية، وعوامل خارجية، ويظل تأثير العوامل الداخلية أقوى وأعظم، ويظل تأثير العوامل الخارجية هامشيًا أو محدودًا، ما لم يتمكَّن العامل الخارجي

من اختراق المنظومة الداخلية للظاهرة، ويجعل من نفسه جزءًا منها، فإذا تمكَّن من ذلك زاد تأثيره، وصارت تسميته بالعامل الخارجي شيئًا لا معنى له. **وسأقدِّم مثالين لشرح هذه الفكرة:**

الأول: الفقر: وهو يعني عجز الإنسان عن توفير حاجاته الأساسية من مسكن وملبس ومطعم وتدفئة ودواء...

وإذا نظرنا في أحوال الفقراء وجدنا أن ما هم فيه من بؤس وقلة يعود إلى نوعين من العوامل: داخلية وخارجية، فبعض الناس يكون فقيرًا بسبب عدم تعلُّمه ونيل شهادة يدخل بها على سوق العمل، وبعضهم يكون فقيرًا بسبب كسله، أو انعدام طموحه أو تكبُّله بالأوهام التي تمنعه من رؤية الفرص التي أمامه، وبعضهم بسبب تغيُّر الظروف عليه وعدم استطاعته التلاؤم مع الظروف الجديدة، كما يحدث مع المشرَّد الذي فقد وطنه، وصار لاجئًا، وكما يحدث مع الذي احترق بيته ومتجره، وصار من غير مأوى ولا عمل.

ومن الناس من يبذل كل جهده، ويعمل كل ما عليه، ويأخذ بكل ما يعرفه من الأسباب ثم يجد نفسه في صفوف الفقراء والمعدَمين أو مَن قُدِر عليهم رزقهم، فلا يكاد يصل إلا إلى بعض حاجاته الضرورية. وفقر هذا الصنف من الناس يعود إلى أسباب خارجية، تعود في الغالب إلى البيئة التي

يعيش فيها، وذلك كمن يعيش في صحراء، ويقتات من الماشية والأنعام التي يملكها، ثم توالى عليه القحط عامًا بعد عام إلى أن هلك كل ما لديه، وهو يجد نفسه مضطرًا للإقامة بسبب وجود والديه معه وصعوبة انتقاله إلى مكان آخر... وإذا ألقينا نظرة على واقع الفقراء في محيطنا، فإننا سنجد أن فقر السواد الأعظم منهم يعود إلى عوامل ذاتية داخلية على نحو ما أشرنا إليه قبل قليل، وفئة محدودة منهم تعاني بسبب صعوبة البيئة أو ضغوط وعدوان الآخرين، ولدينا براهين ساطعة على صحة ما نقول، من أهمها: وجود أعداد كبيرة من الفقراء في بيئات ثرية وممتازة حيث تجد من جاء من أقصى الأرض ليكسب رزقه، وبعد مدة، يصبح ثريًّا، وتجد من وجد في تلك البيئة هو وعشرون جدًّا من أجداده، لكنه لا يتمكن من الحصول على الضروريات.

وفي المقابل نجد في بيئات صعبة تسودها الحروب والقحط والخوف... من يعيش، وينفق على عياله، ويدخر... إن اللَّه - سبحانه - أعطى الإنسان قدرات كامنة عظيمة ومن خلال استغلال تلك القدرات يتغلَّب على الكثير من العقبات والصعوبات التي تعترض طريقه، وهذا ما يفعله كثير من الناس.

حين يمتلك الإنسان العزيمة والإصرار على تطوير ذاته واكتشاف الآفاق الجديدة، ويتخذ من (الزمن) وسيلة

أساسية في حلِّ المشكلات، فإنَّ العوامل الخارجية يتهاوى الواحد منها تلو الآخر، وقد شاهدنا كثيرًا من المعدَمين الذين يملكون الطموح، فعملوا بجدِّية وصبر حتى ملكوا نفقات السفر، وتخلَّصوا من بيئاتهم قاصدين بيئات جديدة، يتوفَّر فيها العلم، أو فرص العمل، وخلال سنوات قليلة تغيَّرت أحوالهم، بل انقلبت رأسًا على عقب. وحين تؤثر الظروف الصعبة في الفقير، فتحوِّله إلى إنسان يائس بائس خائف وقانع، إنسان يجد في سؤال الناس والاستدانة منهم والخضوع لشروطهم، مخرجًا وحيدًا مما هو فيه، فإن العامل الخارجي يتحوَّل حينئذ إلى سمة ذاتية للفقير تحطِّمه، وتسدُّ كل الآفاق أمامه. وفي الدول الثرية مدمنون ومتشردون اختاروا عن طيب خاطر العيش على هامش المجتمع وفي أوكار الرذيلة... ومع كثرة المحاولات من أجل مساعدتهم لم يطرأ أي تحسن على حياتهم، وذلك بسبب رفضهم قبول المساعدة، وعجزهم عن مساعدة أنفسهم.

* * *

التأثير الهامشي

فيما سبق تحدّثت عن فكرة جوهرية، هي أن تأثير العوامل والأسباب الخارجية في حياة الأمة يظل هامشيًّا ومحدودًا ما لم يتحوَّل العامل الخارجي إلى عامل داخلي أو يولِّد عوامل داخلية، وذكرت مثالًا على ذلك (الفقر) بوصفه مشكلًا كبيرًا يعاني منه عدد كبير من المسلمين، ووعدت بتقديم مثال ثانٍ على ذلك من أجل توضيح هذه الفكرة؛ **والمثال الثاني الذي** سأقدمه اليوم - بحول اللّه وَطَوْله - يدور حول (الاستعمار) وسيطرة العدو الخارجي. والحقيقة أنَّ هذا المثال يفيدنا في شرح الفكرة فائدة كبرى، وذلك بسبب اعتقاد كثير من الناس أنَّ الاستعمار هو عامل خارجي وعدوان أجنبي سافر، لا يحتمل أي تحليل أو فهم مغاير. **وأود شرح هذا المثال عبر المفردات التالية:**

١ - من المهم أن ندرك أنَّ البشر يتنازعون البقاء على هذه الأرض بصورة جلية حينًا وبصورة خفية حينًا آخر، كما أنَّ لهم مصالح متعارضة وطموحات جامحة، منها المشروع وغير المشروع.

٢ - حين يتطلَّع البشر إلى تحقيق مآربهم والوصول إلى أطماعهم، فإنهم يأملون في بلوغ ذلك بأقل قدر ممكن من

الخسائر والجهود والتكاليف، فالإنسان كائن اقتصادي من الطراز الرفيع.

٣ – حين تحاول دولة استعمار دولة أخرى، فإنها تقوم بحسابات دقيقة للربح والخسارة، فإذا كانت التوقعات تشير إلى خسارة فادحة في الأرواح والأموال، وإلى منافع قليلة، فإنها تحجم عن ذلك، وإذا ارتكب زعماؤها حماقة في ذلك، فإنهم يواجهون بعد مدة بين شعوبهم من يقف في وجوههم، ويحاول التراجع وتصحيح الخطأ.

٤ – هذا يعني أنَّ القوى الاستعمارية الغاشمة تبحث باستمرار عن الدول الهشة والشعوب الرّخوة من أجل غزوها والنجاح في السيطرة عليها، أي إن ضعف المستعمَرين هو الذي يغري المستعمِرين بالعدوان والتسلط والاجتياح، وهذا ما سماه مالك بن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (القابلية للاستعمار).

هذا يعني أنَّ على كل الأمم المستعمرة والمغلوبة على أمرها أن تفكّر في الأسباب الداخلية التي شجّعت الآخرين على العدوان عليها، وأن توجّه التهمة إلى نفسها، حيث إنَّ من الثابت أنَّ الاستعمار أشبه بالجراثيم التي تغزو الجروح المفتوحة وبمثابة السوس الذي ينخر الأسنان، إنه يقوم بعمل اصطفائي واضح، فالأجزاء التي لا يصل إليها السواك أو فرشاة الأسنان، هي التي تصاب بالتسوس.

٥ - الناس لا يحبّون التفكير بهذه الطريقة لأنهم لا يريدون تحمُّل أيَّ قسط من مسؤولية استعمار بلادهم، إنهم يتحدَّثون فقط عن العدوان والمعتدين من أجل تحميلهم كل المصائب التي نزلت بساحتهم، وهذا اللون من التفكير غير قويم، فالواقع يشهد بأن لدينا دولًا عربية لم تطأها قدم مستعمر، كما أنَّ لدينا دولًا عربية أيضًا استعمرها الأجنبي ما يزيد على قرن من الزمان، والعجيب أنَّ الدول التي استُعمرت أكثر تقدمًا وازدهارًا وأفضل اقتصادًا من الدول التي لم تستعمَر! وهذا كلُّه يعني أنَّ ويلات الشعوب ومآسيها، لا تعود دائمًا إلى تخريب المستعمرين، فهناك القصور الذاتي والتحلل الداخلي، وهناك المستعمِرون المحليون!.

٦ - كثير من الشعوب يستَعمر لا لأنه ليس قادرًا على المقاومة، فشيء من الاستبسال وردٌّ كيد العدو ممكن دائمًا؛ ولكن لأنه يعيش في حالة من القهر والذلِّ والاستبداد وسلب الحقوق، أو في حالة من الفقر والبؤس واليأس، وهذا يجعل الناس لا يشعرون بأن الاستعمار سوف يسلبهم شيئًا عزيزًا، أو ينغِّص عليهم عيشًا هانئًا، وقد قال أحدهم معبرًا عن هذا المعنى: « لماذا أدافع عن وطن لم يؤمِّني من خوف، ولم يطعمني من جوع »؟! بل إنَّ بعض الشعوب المقهورة من أبناء جلدتها تغبط بعض الشعوب المستعمَرة لأن لدى المستعمِر من الرحمة والتحضُّر ما لم يجدوه عند بني قومهم! هذا كلُّه يعني أنَّ الأمم

تفقد روح المقاومة بسبب سوء أوضاعها الداخلية، أي أن قوة المستعمِر لا تكون وحدها كافية لإتمام عملية الاستعمار.

٧ - يحاول المستعمر دائمًا أن يدجِّن الحسَّ الوطني لدى الذين يقوم باستعمارهم، وذلك من خلال إعطاء فئة منهم امتيازات وسلطات كبيرة، ومن خلال استخدام فئة أخرى عملاء وجواسيس وأعوانًا له على باقي أبناء الشعب، ومع الأيام ترتبط مصالحهم بمصالح المستعمر، ويصبحون راغبين في بقائه؛ وقد لاحظ أحد الباحثين هذا حين ذكر أن نفوذ المستعمر يزيد في العادة بعد خروجه من البلاد المستعمَرة، حيث تذهب جذوة المقاومة، ويأتي دور النفوذ الروحي والثقافي، وهذا واضح، فأبناء الشعوب التي استعمرت من قبل الفرنسيين ما زالوا مرتبطين بفرنسا إلى اليوم، فهم يتعلَّمون لغتها بوصفها لغة ثانية، ويرسلون البعثات إليها، ويقضون إجازاتهم السنوية فيها، ويستوردون منها كثيرًا من احتياجاتهم!.

٨ - يؤكد القرآن الكريم على نحوٍ لا لبس فيه على محورية العوامل الداخلية وهامشية العوامل الخارجية في عدد من الآيات الكريمة، منها قول اللّه - تعالى -: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وقوله - سبحانه -: ﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ

شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

إنَّ الانحراف والظلم والبغي والفساد الإداري والكسل والفوضى والأنانية وسوء فهم الواقع... هي الجنود الغازية التي تدمِّر المجتمعات من داخلها، وإنَّ إصلاح أوضاعنا الداخلية، هو الذي يقلل من فرص هيمنة الأمم القوية علينا؛ ولا يصحُّ لعاقل أن يتجاهل هذه الحقائق.

* * *

المال: ما العلاقة الصحيحة به؟

لم يعد ثمة خلاف في أن (المال) بات يشكل محور الحياة المعاصرة، فقد انتهى عصر الأشياء المجانية حتى الهواء النقي، فسنجد أننا بعد سنوات سندفع ثمنه كما ندفع اليوم ثمن زجاجات المياه الصحية، والدليل على محوريته في حياة البشرية أن القرآن الكريم ذكر المال والأموال في أكثر من ثمانين موضعًا، على حين أن أشياء كثيرة مهمَّة في حياتنا لم تذكر في القرآن الكريم إلا في موضعين أو ثلاثة.

والغريب في أمر المال وتحكمه في مفاصل حركة معظم الناس، أننا لو أحببنا تزهيد الناس بالدنيا، وحثَّهم على التخفيف من عاطفتهم تجاه المال والمتاع لوجدنا أنفسنا - حتى ننجز ذلك - محتاجين إلى المال؛ من أجل نشر المقالات وكتابة الكتب وبث الدعايات... ومن هنا فإن المال بات فعلًا يغلف الحياة المعاصرة، وصار تسليط الأضواء على العلاقة الصحيحة به على أوسع نطاق من الأمور التي لا تحتمل التأخير. **وهذه بعض الملاحظات السريعة في هذا الشأن:**

١ - سوف نظل نتوقع علاقة غير متوازنة بالمال بسبب العاطفة الشديدة والميل الكبير الذي فطر اللّٰه - تعالى - النفوس عليه، وبسبب اعتقاد الناس أنهم عن طريق المال يستطيعون

تحقيق كل مرغوباتهم، وحلّ جميع مشكلاتهم؛ وفي هذا يقول اللَّه - سبحانه -: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠] وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨]. والمراد بالخير هنا المال. وقال ﷺ: « **لو أن لابن آدم واديًا من ذهب، أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب اللَّه على من تاب** »[1].

إذا سار المرء وراء عاطفته في حب المال، والسعي في جمعه وحفظه، فإنه سيجد نفسه وقد مضى في طريق مظلم تُضيَّع فيه الحقوق، وتُرتكب فيه الموبقات، كما يفعل أولئك الذين أنعم اللَّه - تعالى - عليهم بالثراء، فمنعوا الزكاة، وأكلوا الربا، ودفعوا الرشوة من أجل الحصول على المزيد والمزيد. شيء جيد أن يعرف المرء في الوقت المناسب أنه مهما جمع من المال، فلن يشعر بالاكتفاء والتخمة، وحينئذ فإنه لن يؤخر شيئًا عن توقيته أملًا في أن يأتي يوم الاستغناء عن المزيد من المال.

حبنا الشديد للمال يجعلنا نرى الأشياء بطريقة غير سوية، ومن ثمَّ فإن إقامة علاقة متوازنة به تتطلَّب أن نمارس المقاومة في كثير من الأحيان: مقاومة الاستحواذ على ما ليس لنا، ومقاومة الطرق غير المشروعة لاكتساب المال، ومقاومة الشح والأنانية والإمساك وكل ما يؤدِّي إلى إمساك المال وعدم إنفاقه في وجوه

---

(١) أخرجه الشيخان.

الخير، وقد قال الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]. إنَّ القرآن الكريم يثني ثناء عاطرًا على الأنصار لأنَّهم قدَّموا إخوانهم المهاجرين على أنفسهم في كثير من المواطن، ومنحوهم ما هم في أشد الحاجة إليه، ويقرِّر القرآن الكريم مرَّة أخرى أن الذي يسلِّمه الله - تعالى - من البخل ومنع الفضل، ويجعله سخيًّا جوادًا، فهو الفائز برضوانه الحائز كل خير وظَفَر.

٢ - إن المال في الرؤية الإسلامية مال الله - تعالى - وهو جزء من ملكه العظيم، والبشر الذين يملكون المال، هم أيضًا مملوكون لله - تعالى - والناس وكلاء على هذا المال وعلى الوكيل أن يتصرف وفق مراد الموكل وإلا كان عاصيًا ومخالفًا، يقول الله - تعالى -: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ٧].

قال القرطبي: « هذا دليل على أن أصل الملك لله - سبحانه - وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي يُرضي الله، فيثيبه على ذلك بالجنة. فمن أنفق منه في حقوق الله، وهان عليه الإنفاق منه، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره، إذا أذن له فيه، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم » [١].

---

(١) تفسير القرطبي (٢٣٨/١٧).

إن استحضار هذا المعنى الجليل يجعل المسلم يندفع نحو استخدام المال فيما أباحه اللَّه - تعالى - كما يدفعه إلى الاقتصاد في إنفاقه، والسخاء في بذله للفقراء والمحتاجين لأن مالك المال الحقيقي يحبُّ هذا وذاك.

٣ - ما دام الإنسان سيظل يشعر بالنهم الشديد نحو المال، فهذا يعني أن المعروض والمتاح من المال سيظلُّ أقل بكثير من المطلوب، مما يعني أنَّ الناس سيظلون يشعرون بالحاجة والعوز، وهذا الشعور - لو تأملنا - يكمن خلف الكثير من النزاعات الدولية والإقليمية والمحلية حتى داخل العائلة الواحدة! ولا يصلح من أجل معالجة هذه المشكلة العمل على توفير المزيد من المال لأن ما يطلبه الناس من المال غير محدود بحدود، إذن ما الذي يمكن عمله؟ أعتقد أنَّ أمامنا طريقًا واحدًا، هو إغناء الفعاليات الروحية والأدبية وتأسيس الأطر والجمعيات والمناشط الخيرية التي يستطيع الناس تحقيق ذواتهم من خلال العمل فيها وممارستها.

إنَّ حبَّ المال نوع من أنواع شهوات النفوس وأهوائها، وهذه لا تقاوَم إلا عن طريق الروح. إن إشغال المسلم لنفسه بالعبادة والإقبال على اللَّه - تعالى - وبطلب العلم وخدمة المسلمين يوفر له مباهج روحية عظيمة، تصرف الكثير من انتباهه عن المال ومباهجه ومسرَّاته. وحين نفعل هذا نكون قد أدرنا التوتر والعنف الذي يولده شحُّ المال بكفاءة

ومهارة عالية، فهل نحن قادرون على أن نسلك هذا الطريق، أم سنستسلم للحلول التي تتبعها الأمم الأخرى في هذا الشأن؟ هذا هو السؤال، وهذا هو التحدي.

٤ - المال في الإسلام شأنه شأن الصحة والجاه والمرض والقوَّة والفقر... عبارة عن أداة ابتلاء واختبار، يمد اللَّه أقوامًا بالمال لتظهر في أخلاقهم وسلوكهم ومواقفهم نوعية فهمهم لهذه النعمة ونوعية تعاملهم معها وتصرفهم بها، وردود أفعالهم على متطلباتها ومستلزماتها، وفي هذا يقول اللَّه - تعالى -: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال - جلَّ وعلا -: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨] أي: « اختبار وامتحان من اللَّه - تعالى - لكم ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه، أم تشتغلون بها عنه » [١].

إن معظم الناس يملكون الوعي بالابتلاء بالفقر والشدة والمرض، فيصبرون، ويحمدون، لكن الابتلاء بالمال والرخاء والسراء، له شأن مختلف، حيث يشعر معظم الناس بأن اللَّه أنعم عليهم حين ساعدهم على اقتناء المال ويسَّر لهم أسباب الراحة، لكنهم لا يستحضرون مسألة الاختبار والابتلاء، وإنما يستحضرون الجهد الذي بذلوه في الحصول على النعمة،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤٢/٤).

ولذلك فالإخفاق في التعامل مع المال هو الشيء السائد. ويذكر لنا القرآنُ الكريمُ (قارونَ) على أنه النموذج الصارخ في الثراء وبسط النعمة وأيضًا في سوء التعامل مع المال، مع أن صالحي قومه نصحوه ووجّهوه إلى أن يتقي اللَّه - تعالى - فيما آتاه، لكن لم يستمع إليهم، وكان جوابه كجواب كل الجهلة: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨]. وذكر اللَّه - تعالى - معقبًا على هلاك قارون وعلى الصحوة التي صار إليها أولئك الذين كانوا يغبطونه على ما آتاه اللَّه من النعمة قوله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

٥ - يقدِّم كثير من المسلمين اليوم مثالًا واضحًا على الارتباك في التعامل مع المال، ويقدم بعضهم مثالًا واضحًا أيضًا على إهلاك المال له وإضلاله إياه. أما المرتبكون في التعامل مع المال، فهم أولئك الأشخاص الذين تحوَّل المال لديهم من وسيلة لقضاء الحاجات والتقرب إلى اللَّه - تعالى - إلى هدف مستقل؛ حيث إن المطلوب في نظرهم هو المزيد من المال ليس أكثر، ولا يسألون أنفسهم: ما الذي سيفعلونه بما تكدس لديهم منه، فهم لا يؤدُّون زكاته، ولا يتصدَّقون، ولا يوسعون على عيالهم، كما أنهم لا يصلون منه أرحامهم؛ كل مبلغ

يتوفر، وكل ربح يأتي، هو رأس مال لمشروع جديد. وهكذا وهكذا... لا ينتفعون بأموالهم في دنياهم ولا في دينهم، حتى إذا جاء الموت، ودقت ساعة الحقيقة اكتشفوا فداحة الكارثة التي ألـمَّت بهم، ولكن حيث لا ينفع الفهم، ولا ينفع الندم!!.

الفريق الثاني عبارة عن شريحة ليست قليلة بين الأثرياء، وهم أولئك الذين لم يملكوا الطاقة الروحية والخلقية للتعامل مع المال، فحوَّلهم إلى جبّارين متكبِّرين على الخلق ومستكبرين عن قبول الحق، فتحوَّلوا إلى نماذج إنسانية مشوَّهة، تستحق الرثاء والإشفاق.

والحقيقة أنَّ القرآن الكريم يعلِّمنا أنَّ بين البسط في المال والجاه والقوَّة وبين البغي والطغيان نوعًا من التلازم المشهود؛ وفكُّ ذلك التلازم يحتاج إلى عقل راسخ ودين مكين ومجاهدة في ذات اللَّه – تعالى – لا تفتر، ولا تتوقف. يقول – سبحانه –: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧].

قال ابن كثير: « أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره، مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك » (١).

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٠٩/٧).

وقال - سبحانه -: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧] أي إن الإنسان ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى، وكثر ماله. إن هذا الفريق من الناس يتجاوز الحدود الشرعية والخلقية والإنسانية في إنفاق المال، فيبذِّر، ويسرف، ويتجاوز الحدود الشرعية... أيضًا في التعامل مع الضعفاء والمساكين الذين يصنعون له الثروة، إنه يبرم معهم العقود الجائرة، ثم لا يوفي بها، ويسلك كل مسلك، ويفكِّر في كلِّ حيلة من أجل الاقتطاع من حقوقهم، إنهم فعلًا - كما قال الرافعي - يصنعون له الثروة، ويصنع الفقر لنفسه من خلال الشحِّ والظلم والبغي، فهو مذموم عند اللَّه - تعالى - ومذموم عند الناس، وصغير في نظر نفسه! وقد صدق من قال: « درهم مال يحتاج إلى قنطار عقل ». نعم ويحتاج إلى قنطار آخر من الدين والمروءة والأريحية.

٦ - هذا المال الذي بين أيدينا وصل إلينا بتوفيق اللَّه ومعونته، وبما هيأه من الأسباب والظروف، وإذا نظر أصحاب الثروات في كيفية حصولهم على ما حصلوا عليه منها لوجدوا المعنى الذي أشرت إليه، ولوجدوا أن من حولهم من الفقراء، كانوا فقراء لأسباب أيضًا، منها ما يعود إلى تقصيرهم، ومنها ما يعود إلى المجتمع الذي لم ينصفهم، ومنها ما يعود إلى ابتلاء اللَّه لهم.

ومن هنا فإن اللَّه ﷻ أراد التخفيف من وطأة كل تلك

الأسباب وما ترتب عليها من كرب على الفقراء والمستضعفين رحمة بهم واختبارًا لأولي الطَّول والسعة، وتوفيرًا لفرصة عظيمة لهم كي يزدادوا من خير اللَّه وفضله، فالصدقة التي يقدِّمها الغني للفقير هي منحة من اللَّه - سبحانه - للأغنياء كي يطهِّروا أموالهم مما علق بها من أسباب الكسب، وكي يطهروا نفوسهم من رذيلة الشحِّ وأيضًا من أجل نماء أموالهم ومضاعفتها ومن أجل رفع درجاتهم وتثقيل موازينهم، وهذا يعني أنَّ مكاسب الغني من الصدقة هي أكبر بكثير من مكاسب الفقير.

وقد ورد الكثير من النصوص في تأكيد هذه المعاني، منها قول اللَّه - تعالى -: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١] وقال - سبحانه -: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] وقال ﷺ: « **ثلاثة أقسم عليهن وأحدِّثكم حديثًا فاحفظوه. ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظُلم عبدٌ مظلمة صبر عليها إلا زاده اللَّه عزًّا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح اللَّه عليه باب فقر** » [1] وقال: « **يا ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خيرٌ لك وأن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى** » [2].

---

(١) رواه الترمذي. (٢) رواه مسلم.

٧ - ما دام المال قد صار محورًا أساسيًّا في الحياة، فلا بدَّ إذن من العمل على ترشيد إنفاقه، والعمل على تثميره وتنميته، وذلك حتى لا تجد الأمة نفسها في حال من الذلة والقلة والعجز، ونجد القرآن الكريم في هذا الإطار يشدِّد على مسألة الاعتدال في إنفاق المال، كما يشدد النكير على أولئك الذين يبدِّدون الثروات جريًا وراء أهوائهم وشهواتهم دون رادع من عقل أو دين، وفي هذا يقول الله - سبحانه -: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

إن الإسراف والتبذير كثيرًا ما يطلقان على شيء واحد، لكن بعض أهل العلم يجعلون التبذير خاصًّا بإنفاق المال في المحرمات، ويجعلون الإسراف عبارة عن تجاوز للمعتاد من الإنفاق في المباحات. إن الزيادة السكانية في معظم دول العالم الإسلامي مرتفعة جدًّا إذا ما قورنت بالزيادة لدى الدول الأخرى، وهذا يعني أنه لا بد من توفير فرص جديدة للعمل عن طريق الادخار والاستثمار.

وتدل بعض الدراسات على أنه من أجل الحصول على تنمية للدخل الوطني بنسبة (١٪) يجب أن نستثمر (٣٪) من هذا الدخل في مشاريع إنمائية وذلك على نحو عام،

وهذا يعني أنه للحصول على تنمية اقتصادية بمعدل سنوي (٥٪) - مثلًا - فإنه يجب أن يوظف ما لا يقل عن (١٥٪) من الدخل الوطني في مشاريع إنمائية في كل عام. إنَّ كثيرًا من الناس يجمِّدون أموالهم في بناء غرف لا يحتاجون إليها، أو في ذهب ومجوهرات لا يستخدمونها، كما أن كثيرًا من الناس يُعرضون عن استهلاك المنتجات الوطنية، ويسعون إلى المستورد، وهذا كلُّه لا يساعد على تحسين مستوى رأس المال الوطني العامل في دورة الاقتصاد. وقد ورد في الحديث الشريف قوله ﷺ: « **خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة** » قال ابن الأثير: « السكة المأبورة، هي صف النخل الملقَّح، والمهرة المأمورة: الكثيرة النسل والنتاج » [1]. إن الذي يبني مصنعًا، يوفر فرص عمل للشباب، ويحافظ على رأس المال الوطني من التسرب إلى خارج البلاد، كما أنه يستهلك جزءًا من المواد الخام المتوفرة في الوطن، ويسهم في توطين التقنية، وهذه كلها أعمال فاضلة، ولصاحبها الشكر والأجر إذا خلصت النية.

* * *

---

(١) النهاية في غريب الحديث (١/١٣، ٦٥).

من أجل الدين والأمة

يمكن القول: إن العالم الغربي يقوم اليوم ببناء صورة ذهنية جديدة عن الإسلام والمسلمين، وهذه الصورة، تميل إلى أن تكون سلبية في مجملها، حيث يترسخ في قناعات الغربيين يومًا بعد يوم أنَّ المسلمين يحلُّون مشكلاتهم عن طريق العنف، كما أنَّ الإسلام نفسه دينٌ يحثُّ على استخدام القوَّة ضدَّ الخصوم والمناوئين، وتعاليمه توجِّه للتحيز ضدَّ المرأة، وتحول بين المسلمين وبين التحديث والتطوير...

وهم يستعينون على تشكيل تلك الصورة بثلاث وسائل:

١ - المناهج الدراسية، والتي يطلع عليها عشرات الملايين من الأطفال والشباب في الغرب، وتُتلقى على أنها شيء عالي المصداقية.

٢ - الإعلام بآلياته الرهيبة، والتي توجت أخيرًا بالبث الفضائي والإنترنت.

٣ - الواقع السيئ - في معظم المجالات - لأمة الإسلام، والسلوك غير المشرِّف لكثير من المسلمين في الغرب؛ حيث إن المعنى المستبطن لدى كثير من الغربيين هو: أن الإسلام لو كان يشكِّل حبل الإنقاذ أو سفينة النجاة، لصلح به حال أهله... بعد أحداث (الحادي عشر من سبتمبر) استيقظ الوعي

الشعبي الغربي على الإسلام بوصفه شيئًا موجودًا بقوة، ويمكن أن يؤثر في إعادة ترتيب أوضاع العالم وإعادة توجيه قواه الضاربة، ونتيجة لذلك الاستيقاظ زاد عدد الداخلين أسبوعيًا في الإسلام حيث يتجاوز في أمريكا - مثلًا - الألف شخص. وفي الوقت نفسه زاد عدد المناوئين للإسلام والباحثين عن الثغرات في حياة المسلمين حيث لا يمضي أسبوع إلا ويطرح في الأسواق الغربية ثلاثة أو أربعة كتب تتناول بعض القضايا والشؤون الإسلامية والعربية على نحو سلبي. والسؤال الذي يطرح نفسه دائمًا: ما العمل؟

حين تتضح الرؤية، ويتم إدراك موطن الداء ونوع التحدي على نحو صحيح، فإنه يمكن عمل الكثير، ولعلَّ من الكثير الذي ينبغي عمله إقامة تحالف إسلامي عالمي يكون له هدف واحد، هو إقامة معارض ثابتة ومتنقلة، تستهدف تعريف الشعوب كافة - والغربية خاصة - على الإسلام وحضارته والجوانب المشرقة من تاريخ الأمة وواقعها...

إن المعارض تتحدث دائمًا عن منجزات ووقائع ومعطيات، وبالتالي فإن مصداقيتها تكون أقوى، والناس اليوم يحبون أن يروا شيئًا بعد أن سمعوا الكثير، فعلينا أن نساعدهم على رؤية تجسيدات عملية لبعض ما نتحدث عنه. **ومما يمكن عرضه في تلك المعارض:**

١ - مخطوطات ووثائق تعكس الجانب الخلقي في الإسلام

ولا سيما الأخلاق التي تتصل بالعلاقات الدولية والتي تتصل بالمعاملات التجارية. ومن المهم دائمًا عدم الاقتصار على الجانب التنظيري، والتركيز على الوثائق والمخطوطات التي تعكس الواقع والأحداث التاريخية على ما هي عليه؛ لأن المطلوب هو الحديث عما وقع وحدث، وليس عما يمكن أن يحدث، أو ينبغي أن يحدث.

٢ - عرض صور مع شرحها عن الأربطة والأوقاف الإسلامية، والتي تعكس الجانب الخيري لدى الأمة، وتوضيح الدور الذي قام به الوقف الإسلامي في حل مشكلات الناس ومساعدتهم على الاستمرار.

٣ - عرض صور ووثائق تحكي التاريخ العلمي للمسلمين، والتركيز على دور الكتاتيب والمدارس والمكتبات في تثقيف الناس، ودور الشعب والجمهور في دعمها.

٤ - عرض الأدوات الطبية والفلكية... التي صنعها المسلمون الأوائل، وعرض صور لغير المتوفر منها، وتوضيح دورها في مساعدة العالم على التغلب على الأمراض ودورها في التقدم العلمي العالمي.

٥ - التعريف بالجانب الأسري من الحياة الإسلامية وعرض الأحكام والأعراف والتقاليد التي تتصل بالحياة الأسرية وما فيها من دفء ورحمة وتضحية إلى جانب عرض صور من الواقع الإسلامي في برّ الوالدين وصلة الأرحام.

٦ - عرض لتجارب الأعلام الذين أسلموا حديثًا من السفراء وأساتذة الجامعات والأطباء والفنانين وغيرهم، وشرح التغيرات الإيجابية التي طرأت على حياتهم بعد دخولهم في الإسلام، ويفضل أن يقوم أُولئك الأشخاص بشرح ذلك بأنفسهم في محاضرات وندوات تقام على هامش المعارض.

٧ - توضيح الرؤية العامة للإسلام في القضايا التي تثير الجدل في العالم اليوم مثل الديموقراطية وحقوق المرأة والعولمة، وتلوث البيئة والإرهاب وما شاكل ذلك.

٨ - إبراز دمج الإسلام للنشاط البشري سواء أكان تعبديًّا أم دنيويًّا في سياق واحد من خلال النية ومن خلال الالتزام بالإطار الشرعي.

من المهم دائمًا عرض كل ذلك بأمانة وموضوعية ودقة وتواضع، ومن المهم كذلك أن يتولى المسلمون من أهل البلد الذي يقام فيه المعرض التقديمَ والعرض والشرح.

والبداية في تأسيس هذا التحالف تكون بإقامة عدد من المؤتمرات والندوات وورش العمل التي تهتم ببلورة هذا المشروع الإسلامي الكبير، وأنا على ثقة بأننا قادرون من فعل ذلك بكفاءة وجدارة، وأن النتائج التي سنحصل عليها ستكون أكبر مما نظن، لكن بشرط أن نمتلك ما يكفي من الإخلاص والهمة والاهتمام.

تبادل الخبرات

على مدار التاريخ كان الإنسان يحلم في الانتقال من مكان إلى مكان دون حواجز ولا قيود، كما يفعل النسر حين يسرح في أجواز الفضاء. وعلى مدار التاريخ كان الإنسان يحلم بأن يطَّلع على ما يجري في أنحاء المعمورة، حتى يستفيد منه، أو يعرف كيف يتقي شرَّه، وربما من أجل إشباع ما لديه من فضول. اليوم تحقق الكثير من ذلك بسبب التقدم المذهل في الاتصالات والمواصلات وفي البثِّ الفضائي، حيث صار في الإمكان رؤية الحدث أثناء وقوعه، ولو كان في أقصى الأرض.

نحن إلى هذه اللحظة لم نستطع إدراك أبعاد التغيرات الثقافية والأخلاقية والعقائدية التي ستحدث بسبب ثورة الاتصال هذه، لكن من المؤكد أن الآثار السلبية سوف تنتشر من غير جهد كبير، كما ينتشر الوباء القاتل، وقد رأينا – مثلًا – كيف تتم عولمة الجريمة اليوم، كما هو الحال في الاتجار بالأطفال والمخدرات والجنس والصفقات المشبوهة وغسيل الأموال...

أما الأشياء الجيدة والممتازة، فيبدو أن انتشارها يحتاج إلى شيء من الجهد والتنظيم والمتابعة. نحن إذن في حاجة إلى العثور على نقطة التعادل بين الخيرات والشرور الكونية المعاصرة

وإلا فإن التقدم على صعيد الاتصال سيكون ضارًّا جدًّا، وربما كان مدمرًا. **ولعلي أشير على عجل إلى بعض ما يمكن عمله في هذا السياق على الصعيد الدعوي على سبيل المثال عبر المفردات الآتية:**

١ – كان للذكاء في الماضي قيمة استثنائية، وذلك بسبب تضاؤل المعارف المنظمة في حياة الناس، وبسبب صعوبة تبادل الخبرات عبر العالم.

أما اليوم فقد اختلف كل شيء، وصار للعلم والخبرة المكان الأسمى في الارتقاء بالبشر، وكان ذلك بالطبع على حساب نفوذ الذكاء. كان القصور في أدوات تنظيم الخبرات ونقلها وتعميمها يشكل العائق الأكبر أمام التخلص من الرؤى المحلية المحدودة، والعائق الأكبر أمام تكوين رؤية عالمية أو إسلامية واحدة في كثير من الأمور. أما اليوم فقد اختلف كل شيء على نحو مثير ومذهل.

٢ – يشكل (الإنترنت) وسيلة مثلى لتبادل الخبرات، فهو وسيلة رخيصة وعامة جدًّا وسهلة الاستخدام، وشيئًا فشيئًا يترسخ وجود الشبكة في الحياة الشخصية لكل الناس، ومن هنا فإنه يمكن اعتماد الشبكة العنكبوتية في محطِّ تفكيرنا في مسألة التعرُّف على الآراء والتجارب والخبرات في أيِّ مكان من الأرض، وعلى كلِّ صعيد من الأصعدة.

٣ – في المجال الدعوي مئات الألوف من الشباب والكهول

المهتمين بنشر الإسلام وشرح مفاهيمه، وتحسين مستوى التزام الناس بتعاليمه... والمسلمون كما نعرف منتشرون في كلِّ أنحاء الأرض، وكل مشتغل بالدعوة - رجلًا كان أو امرأة - ينطلق في الغالب من الخبرة الدعوية الموجودة في بلده ومنطقته، ونظرًا لوجود ضعف عام في التدريب الدعوي لدى معظم الكليات التي تخرِّج الدعاة، فإن الداعية يستخدم مقدراته الشخصية غير المصقولة.

أضف إلى هذا أنَّ لكلِّ بيئة مشكلاتها الخاصة بحسب الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة فيها. لكل هذا فإني أعتقد أن من المهم تأسيس موقع عملاق على (الإنترنت) يستهدف تجميع الخبرات الدعوية في العالم وإتاحة الفرصة لتبادلها على أوسع نطاق. وهذه دعوة موجهة إلى كبريات الجامعات والجماعات الإسلامية، وموجهة أيضًا إلى الشباب المتوثب والغيور والساعي إلى إيصال كلمة اللَّه - تعالى - للعالمين.

إن موظَّفي الموقع والمتطوِّعين لمساعدتهم يقومون بتصميم الموقع وجمع ما يمكنهم جمعه من الخبرات الدعوية المتوفرة في الكتب والدوريات والمجلات والجرائد والمحاضرات وأشرطة (الكاسيت) وتنزيلها على الموقع بحسب حال المدعوين؛ وذلك لأن حال المدعو هي التي تفرض النوعية المطلوبة من ثقافة الداعية وخطابه وأسلوب تعامله؛ وأحوال

المدعوين متباينة تباينًا كبيرًا، ومع أن هناك قاسمًا مشتركًا بينهم جميعًا إلا أنَّ التفوُّق في الأداء الدعوي يتطلَّب التدقيق في التفاصيل ومراعاة المعطيات الجزئية.

من المساقات المقترحة في الموقع الآتي:

دعوة الشباب، دعوة المراهقين، دعوة النساء، دعوة الصفوة والمثقفين، دعوة العمال، دعوة التجار، دعوة العاملين في الحقل الطبي، دعوة غير المسلمين، دعوة المنحرفين ومدمني المخدرات، دعوة المساجين، دعوة طلاب الجامعات، دعوة المعوقين وذوي الاحتياجات الخاصة.

٤ – بعد أن يتم توزيع المعلومات المتوفرة لدى موظفي الموقع على المسافات والفروع المذكورة، يُفتَتح الموقعُ لاستقبال الخبرات والتجارب والأفكار من العاملين في الدعوة، ويتم تصفية ما يتم استقباله، وتنظيمه على نحو معيَّن من أجل تسهيل الاستفادة منه.

٥ – يكون في الموقع هيئة استشارية للإجابة على أسئلة الدعاة واستفساراتهم في نطاق تخصص الموقع.

٦ – نشر مختارات من الخبرات المتجمعة في رسائل صغيرة وفي الصحف والمجلات وغيرها.

٧ – هذا العمل يتيح فرصة للتعبير عن التجارب الشخصية، كما يتيح فرصة للتطوع في سبيل الارتقاء بالعمل الدعوي.

الرؤية المركّبة

في هذا الكون عدد كبير من الثنائيات، حيث نلمس في حياتنا المعنوي والمادي، والقريب والبعيد، والمباشر وغير المباشر، والمرئي والخفي، والذاتي والغيري، وقوي التأثير وضعيفه، والمراد وغير المراد، والمقصود والعفوي... وهذه كلها تؤثر في حياتنا وقراراتنا ونجاحاتنا على درجات متفاوتة.

ويمكنني أن أتشجع، وأقول: إننا إذا دقَّقنا النظر في كل ما يحيط بنا، فإننا لن نجد أيَّ شيء يمكن أن نصفه بأنه بسيط أو أحادي، حيث إنَّ الأسباب والظروف والمعطيات التي تكتنف حياتنا ليست معزولة، وإنما هي ذات علاقات وامتدادات كثيرة وطويلة؛ وهذا كلُّه يفرض علينا ألا نركن إلى الفهم الجزئي السريع، وأن نحاول دائمًا توسيع الرؤية حتى نتمكَّن من إدراك كل أبعاد الظواهر التي نعايشها.

إن من سنن اللّه - تعالى - في الخلق احتياج الظواهر الإنسانية الكبرى إلى تفسير معقَّد يشتمل على عدد من العوامل والأسباب، وإنَّ من الابتسار ومجانبة الصواب اللجوء إلى الاقتصاد في اكتشاف العوامل المؤثرة في وجود الأشياء وتطوُّرها. وقد تعوَّد كثير من الناس الاختزال، والمسارعة إلى التفسيرات الغريبة لما يرون، ويسمعون من أحداث وأوضاع،

وهذا دفع بهم في اتجاه اللجوء إلى المعالجات الجزئية لمشكلات ذات أسباب مركَّبة ومعقَّدة، ومن الطبيعي حينئذ أن يكون الإخفاق أعظم من النجاح. **ولعلي أسوق بعض الأمثلة الموضحة لما أقول:**

الفقر:

الفقر ظاهرة عامة واسعة الانتشار، وهو - فعلًا - من الظواهر الكبرى التي يعاني منها أعداد كبيرة من الناس، وثمة مساعٍ عالمية كبيرة جدًّا من أجل الحدِّ من انتشاره. وأعتقد أنَّ المدخل للعلاج على المستوى العام وعلى المستوى الشخصي يكون بتكوين رؤية مركَّبة للأسباب التي تجعل الناس عاجزين عن الوصول إلى إشباع حاجاتهم الأساسية، **ولعل من هذه الأسباب الآتي:**

- العيش في بلد شحيح الموارد، حيث لا تكون هناك معادن يمكن تسويقها، ولا أراضٍ خصبة أو مياه كافية لزراعة المحاصيل بكميات كبيرة...

- وجود نظام سياسي وإداري فاسد وغير كفء، ينشر التحايل بين الناس على كسب الرزق، ولا يهيِّئ الحد الأدنى من تكافؤ الفرص.

- عدم توفُّر الحد الأدنى من البنية التحتية المطلوبة لإنعاش الاقتصاد؛ مثل الطرق والمطارات والموانئ والسوق

المالية المنظمة والمدارس الجيدة والجامعات المتميزة...

- وجود عقيدة جبرية مستبطَنة، تدفع الناس نحو القعود عن طلب الرزق وبذل الجهد، وذلك كاعتقاد أن « الرزق مقسوم » مع التقاعس عن الأخذ بالأسباب وبذل المساعي في تحقيق الغايات.

- النشوء في أسرة محطمة تربي على اليأس والاحتجاج عوضًا عن التفاؤل والإيجابية.

- السكنى في موقع جغرافي مغلق أو معزول عن التواصل مع العالم الخارجي.

- وجود عادات وتقاليد تدفع إلى الإسراف وسوء التدبير.

- مؤسسات تعليمية مهترئة لا تخرِّج الكفاءات المطلوبة لسوق العمل.

- الجهل بالأصول والآليات التي تساعد على إدارة الموارد الشحيحة والإمكانات المحدودة.

- وجود حروب أهلية أو نزاعات قبلية أو طائفية، ما يؤدي إلى إنفاق المتوفر من المال على التسليح ومتطلبات الفوز في الصراع.

هذه العوامل العشرة هي العوامل الأساسية في انتشار الفقر، وإن كان لا بد من ملاحظة أنه لا يكاد يخلو بلد مسلم من العديد منها، كما لا بد من ملاحظة أنها موجودة بنسب

متفاوتة بين بلد وآخر، كما أنها تتفاوت أيضًا على مستوى الأشخاص. وإن التحدي الذي يواجه كل من يريد معالجة ظاهرة الفقر هو محاولة الاقتراب من معرفة الوزن النسبي لكل سبب من الأسباب السابقة؛ لأن هذه المعرفة ضرورية جدًّا لمعرفة المجالات التي ينبغي تركيز الجهد فيها بسبب حيوية تأثيرها في إصابة الناس بالفقر والعَوَز. وقد تكون الدراسات الإحصائية والمسحية هي السبيل الأمثل لتحصيل تلك المعرفة.

إن من الطبيعي أن يؤدي التركيب في رؤية الأسباب إلى توليد رؤية مركَّبة على مستوى الحلول والمعالجات، وفي هذا الإطار فإننا لم نتمكن إلى اليوم من بلورة خطة شاملة لمعالجة الفقر في أي بلد إسلامي - فيما نعلم - يأخذ القائمون عليها بعين الاعتبار كل العوامل التي أشرنا إليها، وهذا بسبب عدم الاهتمام وبسبب ما أَلِفْنَاهُ من تبسيط الأمور.

- ملامح الرؤية المركَّبة لعلاج الفقر:

أ - القيام بتعريف الفقر ودراسة توصيف أوضاع من هم تحت خط الفقر.

ب - تحسين وعي الناس بالعلل والأدواء المترتبة على انتشار الفقر.

ج - القيام بحملة واسعة لمكافحة الفساد الإداري بوصفه أداة لنشر الظلم والفقر.

د - في حالة شحّ الموارد الطبيعية يتم التركيز في خطط التنمية على الاستثمار في المعلوماتية والتقنية والصناعات الإلكترونية والدقيقة والمتطورة بسبب قلة ما تحتاجه من المواد الخام.

هـ - التركيز في التربية الأسرية على أخلاق العمل مثل الجدية والأمانة والدقة والإنجاز والتعاون... كما يتم الاهتمام ببث روح التفاؤل والاستبشار والثقة بسعة فضل الله - تعالى - وكرمه.

و - إيجاد بيئة قانونية ونظمية تحفز على تدفق الاستثمارية الأجنبية، بوصفها أدوات جيدة لتوفير فرص العمل للمواطنين.

ز - إصلاح التعليم ومساعدة التعليم الأهلي بسخاء وممارسة رقابة صارمة عليه.

ح - مساعدة الشباب على إقامة مشروعات صغيرة ذات تكلفة منخفضة.

ط - نشر حبِّ الخير وتشجيع العمل الإغاثي والتطوّعي وتشجيع كلِّ المؤسسات التي لا تهدف إلى الربح.

ي - توفير أكبر عدد ممكن من مراكز التدريب التي تمكّن الفقراء من اكتساب المهارات المطلوبة للانخراط في سوق العمل.

ك - إثراء الجانب الروحي في حياة المسلمين بوصفه مطلبًا

شرعيًّا وبوصفه مصدرًا للمسرّات المجانية، وبوصفه باعثًا على التقليل من الاستهلاك وهناك لا شكَّ العديد من التدابير الأخرى.

* * *

الرؤية المركّبة

تحدّثت فيما سبق عن (الفقر) بوصفه نموذجًا، نرى من خلاله أسباب هذه الظاهرة، وما يمكن أن يطرح من حلول لمعالجتها، ووعدت بتقديم نموذج آخر لما نريد تقريره في شأن التفكير المعقّد، **وقد رأيت أن أتحدث اليوم عن (التعليم) عبر المفردات الآتية:**

١ - تتخذ أمم كثيرة من التعليم اليوم مدخلًا رئيسًا للتقدّم والازدهار، والتخلّص من الكثير من مظاهر التخلّف. وهناك اعتقاد عالمي قويٌّ بضرورة تطوير التعليم، كما أنَّ هناك شكوى عالمية عامة من قصور المؤسسات التعليمية.

٢ - لدينا ميل شديد إلى التفسير الأحادي والرؤية البسيطة لما نراه من ضعف مؤسساتنا التعليمية على اختلاف مراحلها، والحقيقة أنَّ معظم الناس يتحدثون عمّا أدركوه إدراكًا فطريًّا، أو ما انطبع في أذهانهم عن التعليم بسبب تجربتهم الفردية المحدودة. وقد أشرت فيما سبق إلى أنه لا يصحُّ تفسير الظواهر الكبرى بعامل واحد، وأنه لا بدَّ من البحث عن العديد من العوامل التي تؤدِّي إلى ولادة الظاهرة الواحدة.

٣ - في تاريخنا الإسلامي تركيز شديد على نوعية الشيوخ والمعلّمين الذين يمكن للمرء أن يأخذ عنهم، فإذا كان الشيخ

عَلَمًا في علم من العلوم، فإنَّ الأخذ عنه يشكّل فوزًا عظيمًا لمن يتمكّن من ذلك؛ وتزداد قيمة القراءة على الأعلام، حين يقتضي ذلك السفر والرحلة من بلد إلى بلد.

٤ – لم يكن الارتباط بين المقدار الذي يحصّله الطالب من المعرفة وبين الحصول على عمل أو على المال أو الرزق – واضحًا كالذي نراه اليوم، وهذا يؤثر في نظرة الناس إلى أهمية (العلم) في حياتهم.

٥ – لو تساءلنا عن أوضاع المؤسسات التعليمية لدينا مقارنة بالمؤسسات التعليمية في البلدان الصناعية، فإننا سنجد عددًا من الفوارق التي يمكن أن نتحدَّث عنها على نحو من الظنِّ والتخمين وعلى مقدار خبرتنا المحدودة مع التنويه بأنَّ ما سنذكره قد لا يكون موجودًا في كلِّ مدارسهم وكل مدارسنا، فنحن هنا نتحدث عن عموميات، وليس عن مؤسسات بعينها. **ومن تلك الفوارق الآتي:**

– لدينا في قاعات الدراسة عدد أكبر من الطلاب، مما يجعل قدرة المدرس على التواصل مع جميع الطلاب دون قدرة المدرس لديهم.

– مدارسهم أغنى من مدارسنا بوسائل الإيضاح وبالمعامل والمختبرات وبالورش والمعدات... كما أن نسبة المدارس المستأجرة لديهم إلى المدارس المملوكة للحكومة أقل.

- بداعٍ من قلَّة التجهيزات والإمكانات المادية يميل التدريس لدينا إلى الشرح النظري، على حين يميل التعليم لديهم إلى الاعتماد على التجربة والتطبيق مما يجعل دور الطالب في العملية التعليمية أكبر، ويجعل بالتالي استفادته من الدروس أعظم.

- يلاحَظ في السنوات الأخيرة تراجع سوية الحماسة للتعليم لدى كثير من المعلمين لدينا، وتراجع سوية الحماسة للتعلم لدى كثير من أبنائنا، ولا أعرف أسباب ذلك على وجه التحديد، كما أنني لا أعرف الوضع الآن في الدول الصناعية بالنسبة إلى هذه المسألة.

- كثير من المعلمين العرب والمسلمين لا يحصلون على مرتبات كافية، مما يجعلهم مضطرين إلى القيام بعمل إضافي في المساء كإعطاء الدروس الخاصة وغير ذلك.

- لم تعد مهنة التعليم لدينا جذابة كما كان الوضع في السابق بسبب ضعف عوائدها المادية وبسبب تدني المكانة الاجتماعية للمعلم في العقود الثلاثة الأخيرة، وهذا يعني أنَّ أصحاب أفضل العقول وأفضل المواهب، لا يجدون في مهنة التعليم خيارهم الأوَّل!.

- لدينا أعراف وتقاليد ثقافية موروثة لا تحبِّذ منح الطالب حقَّ تقويم أساتذته والحكم على أدائهم، ولا تحبِّذ فصل بعض

المعلمين من الخدمة بسبب آراء طلابهم فيهم، وهذا جعل بعض المعلمين يتمتع بحماية، لا يحظى بها نظراؤه في بعض الدول المتقدّمة.

- يأتي الطلاب في الدول المتقدّمة من أسر أفضل تعليمًا من كثير من الأسر لدينا، وهذا يجعل الدعم الذي يتلقاه الطالب لديهم للتفوّق والاستمرار في التعليم أكبر من الدعم الذي يتلقاه الطالب لدينا.

- التعليم الحكومي - في معظم الأحيان - مرتبك في تطوير نفسه. أمّا التعليم الخاص، فلدينا عدد قليل نسبيًا من المدارس الجيّدة، وعدد كبير من المدارس التي لا نستطيع عدّها بين المدارس الجيدة أو المقبولة. والمشكل هو الطالب الفقير الذي يملك الموهبة ويملك الطموح، لكن لا يجد المدرسة الحكومية أو الأهلية التي تنمّي مواهبه، وتحقّق طموحاته. والتعليم في كلّ دول العالم يمتلك بعض المؤسسات الرديئة وبعض المؤسسات الجيدة، وإن كانت النسبة تختلف من دولة إلى أخرى، لكن الذي يميّز الدول المتقدّمة في هذا الإطار شيئان:

- وجود تنوّع هائل في التخصّصات بدءًا من المرحلة المتوسطة، حيث يجد الطالب بيسرٍ التخصّص الذي يرغب إكمال دراسته فيه، على حين أنّ هذا قليل جدًّا في الدول النامية والتي تكافح لتوفير الحدّ الأدنى من المؤسسات والتخصّصات في مجال التعليم.

الثاني: وجود مدارس وجامعات ومعاهد على مستوى عالٍ جدًّا من الجودة، وفي تلك المدارس والجامعات تتخرَّج الكفاءات التي تقود الشعوب، وتقدِّم نماذج عالية للأجيال الجديدة.

- لدى الدول المتقدِّمة جمعيات ومؤسسات وهيئات ومجالس خيرية تقدِّم الدعم للتعليم، وتقدِّم القروض والمنح للطلاب بما يسهم في حلِّ المشكلات المالية لكثير من المؤسسات التعليمية؛ وهذا لدينا ضعيف للغاية.

خلاصة هذه المقارنة هي أن لدينا تعليمًا ضعيفًا بل رديئًا أحيانًا وبعض مشكلاته لا تحل إلا عن طريق المال، وبعضها لا تحتاج إلى أي مال. وهذا الكلام الذي ذكرناه لا يصحُّ أخذه على عمومه، فقد يكون لدينا مدارس نموذجية راقية جدًّا، وقد يكون في الدول المتقدمة بعض المؤسسات التعليمية القائمة على الغشِّ والتزوير والرشوة، إذن نحن نتحدَّث عن الطابع العام، وليس عن حالاته بعينها. ومن وجه آخر فإنني لم أتحدث عن بعض ما يميز التعليم لدينا، ولا عن بعض المشكلات التي يواجهها التعليم في الغرب؛ لأنَّ الهدف هو تكوين رؤية مركبة لحال التعليم لدينا ليس أكثر.

* * *

الرؤية المركَّبة

ذكرت فيما سبق أن حل مشكلات التعليم يحتاج إلى « رؤية مركَّبة » وذكرت بعض الأفكار حول تشخيص أوضاعنا التعليمية على نحو مقارب، **وهنا سأتحدث عن بعض الخطوط العريضة التي يمكن أن يستفاد منها على صعيد بناء رؤية شاملة للارتقاء بالتعليم، وذلك عبر المفردات الآتية:**

١ - لا ينبغي للرؤية المركبة أن تبدو وكأنها خلطة معقدة، تجعل صانعها بمثابة من قيل فيه: « تكلَّم كثيرًا ولم يقل شيئًا » وهذا يحدث حين نتبع أسلوبًا مبتذلًا في معالجة قضايا شديدة التعقيد، على ما نراه اليوم في مجالس سمرنا، حيث يتحدث من شاء فيما يشاء من غير أي معرفة جيدة ولا تخصص ولا استعداد مسبق...

٢ - لا ينبغي كذلك لطرح مشكلات التعليم - وكل المشكلات الأخرى - أن يبدو وكأنه (تفريق دمه على القبائل) وذلك حين نقول: المعلمون والأهالي والطلاب والحكومات والأثرياء وأصحاب المدارس الخاصة، والاستعمار وأصحاب المصانع والمؤسسات... كل هؤلاء مسؤولون عن ضعف التعليم! لأننا في هذه الحالة نعلق الإصلاح على جهات كثيرة، لا يمكن التواصل والتفاهم معها حول قضية التعليم، حيث إنَّ

لكل جهة من تلك الجهات همومها الذاتية والشخصية التي تحجبها عن التفاعل المطلوب مع منظّري إصلاح التعليم، كما أنَّ بحث الأمور بهذه الطريقة يشجع الجميع على التهرب من المسؤولية، كما أنه يؤدي إلى شيوع القنوط واليأس من إمكانية التقدم، وهذا ما أشعر أننا قد ابتلينا به فعلًا في معظم مجالات الإصلاح، مع الأخذ بعين الاعتبار أن من يطرح الأمور بهذا الأسلوب ليس مخطئًا على مستوى المضمون، حيث إن المسؤولين عن ضعف التعليم فعلًا هم كل من ورد ذكرهم، ومعهم آخرون لم نذكرهم، لكن الخطأ يكمن في أسلوب المعالجة ومدى نجاعة خطة الإصلاح.

٣ - من المهم أن نقول دائمًا: كلما كثرت العناصر المؤثرة في خطة المعالجة صارت المجازفة فيها أكبر، وصار اليقين أقل، وذلك يعود إلى طبيعة عمل الدماغ وطبيعة تعامله مع المعلومات؛ ومن هنا فإنَّ كلَّ ما يقال حول إصلاح التعليم ينبغي أن يتلقى على أنه شيء ظني تخميني اجتهادي، وعلينا أن نتوقع دائمًا أن يشوبه شيء من الوهم والخلط والمبالغة، وإن الواقع يشهد على صحة هذا، فلو أردنا أن نزن أوراق الدراسات والبحوث والندوات والمؤتمرات التي أقيمت حول إصلاح التعليم في أي بلد لوجدنا أنها تُحسب بالأطنان، ومع ذلك فإن هناك من يقول: إن التعليم يتدهور ويتراجع... أكتب هذا من أجل عدم التعويل كثيرًا على اجتهاداتنا

وبحوثنا، ومن أجل المجاهدة للاحتفاظ بعقول مفتوحة تجاه من يخالفوننا الرأي في مسائل الإصلاح المختلفة.

٤ - من المهم ونحن ننظِّر لعملية إصلاح التعليم أن نحدِّد بدقة المكان والبلد الذي نتحدث عن مدارسه وجامعاته، فمع أن معظم المؤسسات التعليمية تعاني من مشكلات مشتركة إلا أن المطلوب ليس بحث ما هو مشترك، وإنما بحث ما هو خاص. وإنما أقول هذا لأن المعالجة الدقيقة تقتضي بالإضافة إلى الرؤية الشاملة أن نحدد مداخل الحركة الإصلاحية ونقاط الارتكاز فيها، وأن نحدد العوامل الأكثر تأثيرًا من أجل منحها اهتمامًا وتركيزًا أكبر.

ونحن نجد في هذا الإطار أن مدخل إصلاح التعليم يكون في بعض البلدان في تحسين سوية المعلمين ووضع محفزات لاجتذاب أفضل العقول والكفاءات إلى هذه المهنة، كما هو الشأن في معظم الدول الفقيرة والفقيرة جدًّا.

في كثير من بلدان إفريقيا تجد رغبة جامحة لدى الطلاب في التعلم، لكن التجهيزات المدرسية تقترب من العدم، أما في الدول الثرية والمتوسطة، فتجد أن ضعف الرغبة وفقد الحماسة للتعلم هي المشكلة الجوهرية. هناك دول تعاني من كلِّ أشكال الضعف في المؤسسات التعليمية إلا أنَّ كل شيء يمكن أن ينهض ويتحسَّن إذا تحسنت الخطط التنموية والأداء الاقتصادي، وذلك كي يشعر الدارسون في المدارس والجامعات

أنهم يجدون بعد التخرج فرصًا للعمل أفضل من الفرص التي يجدها (المهنيون) الذين لم يتلقّوا إلا حظًّا يسيرًا من التعليم. وهكذا نجد أن الوقوف على نقاط الضعف الأساسية في التعليم يتطلّب فهم ما عليه الوضع في بلد، وما عليه الوضع في بلد آخر، وإلا كنا أشبه بـ (الحلاق) الذي يمارس الحجامة وقلع الأضراس وختان الأطفال...

٥ – لا نستطيع ونحن نتحدث عن الرؤية المركبة في مجال التعليم إلا أن نتحدث عن (التعليم الأهلي)، حيث إنه ينمو بصورة مستمرة، وله مستقبل كبير؛ هذا التعليم يملك إمكانات هائلة تؤهله من أن يقود عملية التغيير التعلمية على مستوى بلد بأكمله، كما أنه في الوقت نفسه يستطيع أن يقدّم أسوأ النماذج في هذه المهنة الشريفة، إن له وضعًا مختلفًا فعلًا عن التعليم الحكومي، وهذا ما نشاهده اليوم حيث نجد القليل من الجامعات والمدارس الأهلية التي تقدّم النصح والتوجيه والتعليم الجيد، والكثير منها يتخذ من الطلاب سلعة للمتاجرة، ويُهان فيها المدرِّسون ويُظلمون على نحو يخجل الإنسان من الحديث عنه، ولهذا فإن أساس تطويره يقوم على المقولة التالية: « ادعمه وراقبه »؛ المزيد من الدعم من قبل الحكومات والمزيد من الضوابط الصارمة والمراقبة المستمرة.

٦ – مهما طورنا وأصلحنا في مؤسساتنا التعليمية، فإنها ستظل تعاني من شيء من القصور، وذلك يعود أساسًا

لقصور القائمين على الإصلاح وقصور المنظِّرين له، ومن هنا فإنه لا بدَّ من إيجاد نظام نستدرك من خلاله على قصور النظم التعليمية، وهذا النظام يتمثَّل في التعليم (الخيري) و (اللاربحي) حتى يجد الطالب الفقير والموهوب المدرسة الممتازة التي يدرس فيها بأقساط ميسرة أو من غير أن يدفع أي شيء، وهذه الفكرة في منتهى الأهمية والحيوية؛ وهي فكرة إسلامية عريقة، حيث إن العمل الخيري في الفلسفة الإسلامية لا يقوم من أجل سدِّ حاجات الناس على نحو كلِّي، فهذا عسير للغاية، وليس فيه مصلحة، وإنما يقوم بوصفة كرَّة ثانية من أجل الاستدراك على عدالة اجتماعية منقوصة بسبب قصور النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد كان المسلمون في يوم من الأيام روَّادًا عظامًا في التعلم المجانيِّ والخيري، ثم دار عليهم الزمان حتى أصبحوا في ذيل القافلة على صعيد هذا المجال المهم، ولا بدَّ من استعادة ذلك الدور إذا ما أردنا للوضع التعليمي لدينا أن يسير في الاتجاه الصحيح.

* * *

التعصب

في الساحة الإسلامية العامة دعوة عريضة لتوحيد الأمة في كيان سياسي واحد، وفي ساحة الصحوة والدعوة هناك دعوة مماثلة لتوحيد العمل الإسلامي، أو على الأقل العمل على تقريب توجهاته ومناهجه، ولكن الواقع يشهد أن الاستجابة لكلتا الدعوتين، تقترب من العدم، مع أنَّ ولاء المسلمين قاطبة كان على مدار التاريخ للأمة، وليس للدولة القطرية، ومع أنَّ لدى الإسلاميين الكثير من النصوص والمقولات التي تؤكد على وحدة الكلمة ونبذ الخلاف والفرقة، فلماذا لم تتحقق هذه التطلعات؟

في البداية لا بدَّ من القول: إنني لا أحكم هنا على مدى واقعية الدعوة إلى توحيد الأمة تحت لواء سياسي واحد ولا توحيد الجماعات الإسلامية في أيِّ بلد من البلدان الإسلامية تحت إمرة قيادة واحدة، فهذه مسألة تحتاج إلى نقاش معمَّق، لكن أودُّ هنا أن أشير إلى مرض اجتماعي واسع الانتشار على صعيد الأمة بشكل عام، وعلى صعيد الجماعات الإسلامية على نحو خاص.

وهذا المرض والذي هو (التعصب) يشكِّل عائقًا أساسيًّا أمام كل أشكال التقارب بين الأفراد والجماعات والشعوب

والمؤسسات... وذلك لأنه يكرِّس أسباب الفرقة ويهدم ما هو موجود من أركان اللقاء والوحدة والتعاون. **وهذه بعض الملاحظات الجوهرية في هذا الشأن:**

١ - للتعصب علاقة لغوية بـ (العصبية) ومعناها أن يدعو الرجل إلى نصرة (عصبته) - أي مراقبته من جهة أبيه الذين يتعصبون له وينصرونه - والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين. إن المتعصب لشيء أو ضدّه، يتّسم بالعاطفة الشديدة والميل القوي، فهو في حالة التعصب لقومه أو جماعته أو وطنه أو أفكاره... لا يرى فيما يتعصَّب له إلا الإيجابيات والمحاسن، وفي حالة التعصب ضدّ شيء مما ذكرناه، فإنه لا يرى إلا المعائب والسلبيات. وهذا يعني أن المتعصّب مصاب بـ (عمى الألوان). والمتعصب إنسان غارق في أهوائه وعواطفه، على مقدار ضعفه في استخدام عقله، ولا يعني ذلك أنه لا يفكّر، إنه يفكر، ولكن الأفكار التي تتمخّض عن تشغيل عقله، يتمُّ إنتاجها في إطار العواطف الجامحة التي لديه، وتكون مهمتها الأساسية ليس ترسيخ الاعتدال والإنصاف، وإنما التسويغ للميول والعواطف العمياء التي تغلي في صدر الإنسان المتعصب! لا يحبُّ المتعصب المناظرة؛ لأن التعصب الذي لديه يوحي إليه بأنه على الحقّ الواضح الذي لا يقبل النقاش، لكن المتعصّب يحبُّ الجدال

بالباطل الذي يقوم على أسس غير موضوعية وغير عقلانية.

والإنسان المتعصب بعد هذا وذاك إنسان عجول، يُصدر الأحكام على الناس من غير فحص للأدلة والبراهين والأسس التي تقوم عليها تلك الأحكام، إنه مع قومه فيما يحبون ويكرهون، ومع جماعته فيما تقدم عليه، وفيما تحجم عنه، وهم في كل ذلك على صواب، ولا يحتاج ذلك إلى أدلة، على حدِّ قول الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قال برهانا

ومن لوازم التعصب ومكوِّناته - بالإضافة إلى ما أشرنا إليه - الآتي:

- الجمود، حيث إنّ المتعصب يلازم الأفكار الموروثة حول ما يتعصب له، فإذا كان يتعصّب لبلده، فإنه يحفظ كل ما قيل في فضائله بقطع النظر عن صحته، ولا يفتح عقله للتعامل مع المقولات الجديدة حول ذلك البلد، فهو بلد الصدق والأمانة والشهامة والكرم... وإن كان الناس من حوله يلاحظون أن وجود هذه الفضائل نسبي، وأن بين أبناء بلده من ليس صادقًا ولا أمينًا ولا كريمًا...

- من مكوِّنات التعصُّب ولوازمه التفكير غير المنطقي، حيث تنطمس الأسباب عند الحديث عن المشكلات، ويختلُّ

الربط بين المقدمات والنتائج؛ فإذا حدثت محنة عظيمة لجماعة المتعصّب فإنَّ تلك المحنة ليست بسبب سوء تقديرها للأمور، أو بسبب أخطاء تربوية أو تنظيمية أو بسبب أخطاء إستراتيجية.

إنَّ كلَّ هذه الأخطاء لا يستطيع المتعصب رؤيتها، ولهذا فالمحنة التي وقعت هي بسبب مؤامرة كبرى تعرضت لها الجماعة أو بسبب وشاية من جماعة منافسة، أو بسبب عدم التزام بعض أبنائها بالتعليمات... وحين يُنَبَّه المتعصّب إلى أنَّ السلوك الفلاني سيؤدي إلى كذا وكذا، فإنَّ المتعصب يفسّر ذلك بالحسد والحقد والجهل؛ وذلك لأنّ في سلسلة المعقولات لديه حلقات مفقودة، لهذا فإنه لا يستطيع رؤية التداعيات المنطقية بين الأشياء.

- التعميم المفرط داء وبيل يُبتلى به المتعصبون عادة؛ ونحن نقول دائمًا: إن التعميم المفرط من أكثر أخطاء التفكير شيوعًا، وذلك بسبب عجز معظم الناس عن إصدار أحكام مبنية على رؤية تفصيلية منصفة؛ إن أية فضيلة تثبت لواحد من أفراد قبيلة المتعصب، يعمّمها على باقي أبناء القبيلة، وإنَّ أيَّ رذيلة تثبت عن قبيلة منافسة يقوم بتعميمها على جميع أبناء تلك القبيلة، وفي هذا من الظلم ما لا يخفى. وهكذا فالمحاباة والتحامل صفتان أساسيتان لدى الإنسان المتعصب،

وهاتان الصفتان توجِدان خللًا كبيرًا في الشخصية، ولهذا فإنَّ المتعصب يكون في الغالب محرومًا من التوازن العقلي والانفعالي الذي يتمتع به الأسوياء.

* * *

التعصب

نتابع حديثنا عن التعصب الذي بدأنا التحدث فيه فيما سبق.

٢ - التعصب حين يطول أمده، فإنه يؤثر في الشخصية تأثيرًا بالغًا، إنه يصبح عبارة عن مصنع للنظارات التي يرى المتعصب الأشياء من خلالها، فهو في كلٍّ موقف يتعلَّق بمن يوجِّه التعصب ضدَّهم، يفكِّر، ويفهم، ويُدرك، ويعي، ويشعر، ويسلك ويتصرَّف ويحكم وفقًا للصورة الذهنية التي شكَّلها عنهم؛ وعلى سبيل المثال فإنَّ المتعصب حين يعتقد أن القبيلة الفلانية قبيلة منحطَّة في نسبها أو سجلها التاريخي أو مكانتها الاجتماعية الحاضرة، **فإنَّ نظرته إلى تصرُّفات أفرادها وأحكامه عليهم ومشاعرهم نحوهم، تتجسَّد في الآتي:**

- إذا رأى واحدًا من أفراد القبيلة، فإنه ينظر إليه نظرة دونية، فهو غير جدير بالتفوُّق الظاهر، وإذا احتلَّ منصبًا كبيرًا نظر إليه على أنه أصغر من أن يحتلَّ ذلك المنصب، وإذا طالب بحقٍّ ثابت له، رأى أنه يبالغ في طلب ذلك الحق.

- إذا حدثت سرقة أو جناية، أو وقعت فعلة شنيعة، ولم يُعرَف مرتكبها فإن المتعصِّب يتهم واحدًا من أبناء تلك القبيلة - لا على التعيين - بفعل ذلك، ويبعد التهمة عن

أبناء القبائل الشريفة والرفيعة.

- حين يقع ظلم على رجل ينتمي إلى قبيلة وضيعة فإنَّ المتعصِّب لا يجد في نفسه الحماسة للدفاع عنه ومناصرته، ربما لأنه يعتقد أنه لا يُعقل أن يكون مظلومًا، أو يعتقد أنَّ من المؤكَّد أنه هو الذي تسبَّب في إيقاع الظلم على نفسه.

- يحاول المتعصِّب الابتعاد في معاملاته وعلاقاته الاجتماعية عن أفراد القبيلة المنحطَّة وذلك خوفًا من العار أو الأذى أو الخيانة...

- ينظر إلى ابن القبيلة المنحطَّة على أنه غير موثوق في كلامه، ويفسر الغامض منه تفسيرًا سيئًا.

إن كل ما ذكرناه يتم من خلاله الرؤية الإجمالية، ومن غير أدلة وبراهين يمكن الاعتماد عليها. وأنت ترى أن ما أشرنا إليه يشكِّل في الحقيقة نوعًا من التمييز الشبيه بالتمييز العنصري الذي مارسه البيض في جنوب إفريقية، ويمارسه اليهود اليوم في فلسطين السليبة.

إنَّ التعصُّب والذي يعزز التمييز بالصورة التي رأيناها يقسِّم أبناء الملَّة الواحدة إلى طبقتين متمايزتين: طبقة القبائل النبيلة ذات الحسب والنسب والتفوُّق والشرف وطبقة القبائل الدنيئة الوضيعة التي لا تمتُّ إلى المكرمات بأيِّ صلة!.

وفي هذا من الحيف والظلم والبخس الذي تمقته الشريعة

الغراء، حيث يقول اللَّه – تعالى –: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥]. وقال ﷺ: « **إن أعظم الناس جرمًا إنسان يهجو القبيلة بأسرها، ورجل انتفى من أبيه** » (١). وقال: « **لا يُؤخذ الرجل بجريرة أبيه، ولا بجريرة أخيه** » (٢).

٣ – من الواضح من خلال ما ذكرناه عن التعصُّب ضدَّ (القبيلة المنحطَّة) أن المتعصِّب يقوم بعملية (تنميط) لجميع أفراد القبيلة فهم جميعًا لديه يتخلقون بأخلاق واحدة، ويفكِّرون بطريقة واحدة، ولهم تطلُّعات واحدة... وهذه العملية (التنميط) هي النتيجة الحتمية لعجزنا عن العيش في عالم واسع الأرجاء كثير التعقيدات، فنحن غير مهيئين للتعامل مع كلِّ الأحداث الموجودة بشكل مباشر، ولهذا فإننا نعيد بناءها في نماذج بسيطة كي تصبح سهلة الإدراك.

ومن المشاهد أن (التنميط) يقوم على الاختصار والتعميم، فالجماعات الإسلامية – مثلًا – حين تحاول تحديد ملامح بعضها بعضًا، تعمد إلى (الاختصار): هذه الجماعة تشتغل بالدعوة، واهتمامها بالعلم الشرعي محدود، المثقفون فيها قليلون، وهي لا تشتغل بالسياسة، ولا تهتم بالجهاد (قتال الأعداء) ولديها بدعٌ كثيرة. هذه السمات هي ما توصف به إحدى الجماعات الإسلامية العاملة على

---

(١) رواه ابن ماجه. (٢) رواه النسائي.

الساحة، والمنتشرة في شبه القارة الهندية على نطاق واسع. الصفات المذكورة هي كل ما تتصف به في نظر الجماعات المتعصبة ضدَّها والمناوئة لها. ولا يُذكر في العادة ما لديها من أعمال عظيمة في الدعوة ولا يذكر ذلك العدد الضخم من الناس الذين تغيَّرت أحوالهم إيجابًا بسبب دعوتها لهم.

بعد الاختصار يأتي التعميم، فكل من ينتمي إلى تلك الجماعة وسواء أكان من أعمدتها وأركانها، أم كان يتحرك في هامشها - كل أولئك يتسمون بالسمات العامة لتلك الجماعة، وعند معاملته ومناظرته وتقويمه... يعامل وكأنه فعلًا متمثل لكل صفات جماعته ومتشرِّب على نحو كامل لكلِّ مبادئها وأخلاقها، ويحمل كل عيوبها ونقائصها...

وإذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن في أفراد تلك الجماعة، من يمضي معها، وهو لا يعرف إلا القليل عن إيجابيِّاتها وسلبياتها، ومنهم من يمضي معها، وهو يناقشها في بعض ما يؤخذ عليها، وهذا موجود في الحقيقة لدى كلِّ التجمعات والجماعات والأحزاب، بل هو موجود بين أفراد الأسرة الواحدة، حيث يظهر أبناء الأسرة أمام الناس وكأنهم شيء واحد، مع أن بينهم الكثير من التباين والاختلاف. التعصُّب يقوم على الاختصار المخلِّ والتعميم المجحف، أي هو مولود لأبوين غير شرعيين، ولذا فإنه مذموم بمعايير الشرع والمنطق والإنسانية.

* * *

التعصب

سنكمل حديثنا عن التعصب وعن الأسباب التي تدفع الأشخاص والجماعات في اتجاه (التعصب) على أمل تكوين ثقافة واضحة حول هذه العلة الأخلاقية والاجتماعية المنتشرة على نطاق واسع؛ **ولعل من أهم تلك الأسباب الآتي:**

١ - الجهل سبب رئيس بين أسباب التعصب، إذ إن الشخص أو الجماعة أو القبيلة أو الحزب حين يجهل حقيقة ما عليه الآخرون فإنه يقع بسهولة فريسة لأحاديث المجالس غير الموثوقة والمتحاملة، كما يقع فريسة للدعاية المضادة.

وتدلُّ بعض الدراسات على أن الناس كلما عرفوا أكثر وأكثر عن بعضهم خفَّت حدَّة التعصب لديهم؛ وذلك لأن تلك المعرفة تُظهر لهم زيف الشائعات المغرضة التي يتداولونها عن بعضهم من غير أي تثبت؛ وفي هذا الإطار نفهم حكمة العديد من التشريعات والعبادات الإسلامية ذات الصبغة الاجتماعية؛ مثل الحج وصلاة العيدين والجمعة والجماعة، ومثل الحثّ على التزاور وعيادة المريض، وصلة الأرحام، والتعاون على البر والتقوى...

والله - تعالى - يحثُّنا بطريقة واضحة على التعارف والتواصل حين يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]. إن انتشار الذرية وتنوُّع الانتماء القبلي من الأمور التي تبعث على الفرقة والتناحر والتعصب، **لكن القرآن الكريم يذكِّرنا بثلاثة أمور أساسية:**

أ – الناس مهما اختلفوا وتباعدوا، فإنَّ عليهم أن يتذكَّروا أنهم جميعًا من أب واحد وأم واحدة، فهناك دائمًا شيء مشترك.

ب – هذا التنوع قد يُستغل للعداء والتجافي، لكن اللَّه – تعالى – يريد من عباده أن يتخذوا منه أداة للتواصل والتآلف والتعارف على قاعدة: « نختلف لنأتلف ».

ج – لا ينبغي لهذا التنوُّع أن يُتخذ طريقًا للكبد وهضم الحقوق والشقاء، فالإنسان يكون أفضل من غيره بشيء واحد، هو (التقوى)، ومن التقوى رحمةُ العباد والرفق بهم وجلب النفع لهم.

٢ – يجد العنصريون والأنانيون ومحدودو الأفق في التباين الفكري والثقافي والعرقي... مرتعًا خصبًا لإنعاش التعصب وزيادة حدَّة الاختلاف. إنَّ هؤلاء يجعلون من أنفسهم ومن مجموعاتهم محورًا أوحد، فكل ما لديهم هو الأصل، وكل ما لدى الآخرين ينبغي أن يكون صورة، وإلا تعرضوا للنبذ والعدوان والاضطهاد، مع أنَّ الواقع يشهد أنه

ليس هناك قبيلة ذهبت بكلِّ المكرمات، ولا جماعة ذهبت بكلِّ النجاح، كما أنه ليس هناك تيار أو مذهب ذهب بكل الصواب ونحن نعرف أن أحد فقهائنا القدامى أطلق قاعدة ذهبية في هذا الشأن حين قال: « مذهبنا صواب، يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ، يحتمل الصواب » لكن الذي كان يجري - وما زال في معظم الأحيان - هو أن مدرسي كل مذهب كانوا مشغولين باستمرار ببيان فضائل مذهبهم والدفاع عن أصوله وفروعه دون ممارسة شيء ذي قيمة من النقد والمراجعة والتمحيص. ووقع مثل هذا لجماعات وأحزاب وتيارات عديدة. إن النقد الذاتي يخفِّف من حدَّة التعصُّب، ويقلِّل من إمكانية استغلال العواطف والمتاجرة بها، لكن هذا يحتاج إلى قدر كبير من الإخلاص والشجاعة الأدبية والرؤية الموضوعية.

٣ - تشتدُّ حدَّة التعصُّب في المجتمعات التي فيها قوانين غير منصفة، وذلك كأن تنال طبقة أو فئة أو مجموعة امتيازات خاصة، دون بقية الناس؛ هذه القوانين تعمل على توليد ثقافة التعصب من أجل إيجاد منطق لإقناع المحظوظين باستحقاقهم للامتياز، وإقناع المظلومين بأن ما يجري لهم هو شيء طبيعي، ومن هنا فإن الشريعة شددت كثيرًا على مسألة العدل ومقاومة الظلم.

والحقيقة أن الفئة التي تنال ما ليس لها تصاب بنوع من

التشوه في أرواحها وعقولها وأخلاقها، وهذا من عدل اللَّه - تعالى - بين عباده!.

٤ - المنافسة على طلب الرزق تذكي نار التعصب، فحين يجد السكان الأصليون أن الوافدين إلى بلادهم صاروا يزاحمونهم على الأعمال والوظائف، فإنهم يسعون إلى إيجاد آلية لكسر حدة منافستهم، ويجدون في التعصب وسيلة جيدة لذلك، والمفروض لحل مثل هذه المشكلات النظر بعين الإنصاف للإيجابيات والسلبيات التي تترتب على وجود أولئك المنافسين، والسعي إلى إيجاد نظم وقوانين عادلة ومريحة تحكم وتنظم العلاقات بين الجميع، ولا سيما أننا نعيش في عصر العولمة حيث كل شيء يتداخل ويتواصل بوتيرة متصاعدة.

٥ - أحيانًا تتعصب جماعة أو قبيلة ضد جماعة أو قبيلة أخرى من أجل تقوية نسيجها وتقوية صفوفها، وهذا ما يفعله اليهود في فلسطين المحتلة، فهم يحتقرون العرب والفلسطينيين خاصة، ويشنون الحروب المتتابعة من أجل تقوية الروابط الاجتماعية والأيدلوجية القائمة بين اليهود. ولا شك أن اللجوء إلى التعصب بوصفه مورد تضامن ينطوي على انحطاط أخلاقي، ويدل على فساد الأسس التي قام عليها الكيان أو التجمع.

* * *

التعصب

بعد أن تحدثنا عن ظاهرة التعصب وعن أسبابه، **آن لنا أن نتحدث عن سبل مقاومة هذه الظاهرة السيئة والمنحطَّة، وذلك عبر المفردات الآتية:**

١ – التعصب ليس شيئًا وراثيًّا، لكنه يُكتسَب، ويُتعلَّم من البيئة المحيطة، وهذا يعني أنَّ الإنسان كما يتعلم التعصب، يمكنه أن يتعلم التساهل والتسامح. وقد دلَّ العديد من البحوث والدراسات على أن الشعوب والجماعات تتغير اتجاهاتها عبر الأجيال، كما تتغير أنماط التفكير لديها، فالإنسان كائن يتعلَّم باستمرار، لكن الخلاص من العيوب لا يتم عن طريق المصادفة، وإنما عن طريق القصد والتخطيط والمجاهدة.

٢ – للتخلص من أي ظاهرة، نحتاج إلى تركيز الضوء عليها، بل نحتاج في الحقيقة إلى تشريحها، وظاهرة التعصب من الظواهر الشديدة التعقيد لأنها تقوم على عقائد وأفكار ومفاهيم راسخة ومترابطة، وذات مسحة منطقية أو نصف منطقية. ومن الواضح أن التعصب يشكل نوعًا من حبِّ الذات، ويشتمل على درجة كبيرة من الأنانية والتمحور حول النفس، وذلك لأنَّ المرء يحبُّ الذين يشبهونه، وينفر من الذين يتبينَّ له أنهم مغايرون له، وهذا ينمُّ عن غفلة

شديدة أو وعي زائف، أو نفس مريضة!

٣ - انتهت نظريات التفوُّق العرقي والتي سادت فترة طويلة من الزمان، وعادت الأمم المتحضرة إلى المعيار الإسلامي في التفاضل، وهو الاستقامة والنفع العام والتفوق في الأداء، وصار من الواجب علينا نشر هذا المعنى على أوسع نطاق.

٤ - كثيرًا ما يقوم التعصب على التعميم الخاطئ، فنحن حين نحكم على شعب بأنه أحمق أو كسول أو غدار أو غبي... نقوم بتعميم ملاحظة أو معلومة جزئية عن أفراد قليلين لنجعلها شاملة لأعداد كبيرة قد تبلغ مئات الملايين من البشر، وفي هذا من الظلم والتجني ما لا يرضى اللَّه - تعالى - به، وما لا يليق بالإنسان العاقل والموضوعي الحريص على وضع الأمور في نصابها. ولهذا فإن مقاومة التعصب تحتاج إلى تقوية الوازع الديني والذي يدعو إلى التوقي من ظلم الناس، وإلى تدعيم التفكير الموضوعي والمحاكمة العقلية العادلة لدى الناشئة، وهذا من مسؤوليات الأسر في البيوت، ومن مسؤوليات المدارس ووسائل الإعلام.

٥ - يدفع التعصب في اتجاه العداوة والعزلة، ولهذا فإن كثيرًا من التعصب سببه الجهل وضعف الاتصال، ومن هنا فإن علينا التفكير في الوسائل التي تساعد على الاتصال الفعال، والوسائل في الحقيقة كثيرة منها:

أ – الحوار وتبادل الأفكار، ومناقشة القضايا والمشكلات التي تثير التعصب، وتلك القضايا كثيرة، فقد تكون المعتقدات والمفاهيم الخاطئة عن أولئك الذين يجري التعصب ضدهم، وقد يكون التنافس على طلب الرزق، وقد يكون سيطرة فئة على بعض القطاعات أو بعض الموارد... إن الحوار يكون أشبه بفتح جرح التأم على فساد، فتح الجرح مؤلم، ولكن حتى نطهره لا بدَّ من تحمل الألم.

ب – فرق اللعب تساعد في تعريف الشباب على بعضهم، وهذا واضح جدًّا في الألعاب ذات الصبغة العالمية، حيث يتمُّ اختيار الأكفأ لتمثيل البلاد بقطع النظر عن لونه ودينه وعرقه، وكم رأينا من مشاعر الجماهير الإيجابية والحميمة تجاه لاعبين ينتمون إلى فئات لها مشكلة مع تلك الجماهير.

ج – للتعليم دور أساسي في التخفيف من مشاعر التعصُّب عن طريق الاتصال الفعَّال، وقد قامت بعض الدول التي تعاني من العنصرية باتباع سياسات تعليمية بنَّاءة في هذا المجال، وعلى سبيل المثال، فقد كُلِّف الطلاب بإجراء بحوث متنوعة على أن يقوم بعض الطلاب السود بكتابة جزء من البحث، ويقوم الطلاب البيض بإكماله، أي لا يكتمل البحث إلا من خلال تبادل المعلومات والتحدُّث حول منهج البحث بين الطرفين.

د - الاتصال الفعَّال المؤثِّر، هو اتصال عفوي حرٌّ بعيد عن الرسميات، وهذا يتحقَّق خلال اللعب والبحث والتسوُّق والاختلاط بين الجوار... لكن لا بدَّ مع هذا من شيء مهم جدًّا هو عدالة القوانين، حيث إنَّ كثيرًا من الفوقية والنرجسية والتميز الأجوف يأتي من وراء القوانين الظالمة التي تمنح فئة أو فئات من الشعب امتيازات لا تستحقها؛ وقد ثبت أنَّ للقوانين قدرة فائقة على توليد الثقافة التي تمنحها الشرعية، وتضفي عليها المنطقية والانسجام. العدل يدفع في اتجاه الإخاء، والظلم يدفع في اتجاه التعصب والتنابذ والعدوان، هذه حقيقة راسخة، يجب أخذها بعين الاعتبار.

٦ - تسليط وعي الناس على التناقضات الأخلاقية التي سببها لهم التعصب، حيث إنَّ كثيرًا من الذين يتعصَّبون ضدَّ غيرهم يؤمنون بالعدل والمساواة وكرامة الإنسان، ويحفظون الآيات والأحاديث والأقوال التي تدلُّ على ذلك، لكنَّهم لا يستفيدون منها شيئًا، وهم من وجه آخر، يحبُّون من غيرهم أن يعاملوهم على أنهم بشر أسوياء محترمون، لكنهم لا يفعلون ذلك مع الآخرين. إنَّ توعية الناس بهذه المعاني على نحو مستمر، قد تساعد فعلًا في تخفيف غلواء التعصب.

٧ - نشر الروح الإيجابية والتفكير الإيجابي مهمٌّ أيضًا على هذا الصعيد، حيث إنَّ على المسلم أن يركِّز على رؤية الإيجابيات، وعلى ما لدى الناس من فضل وخير، ويتعلَّم

غضّ الطرف عن النقائص والهفوات، فذلك أسلم لقلبه وأفضل لدينه، وأعون له على مواجهة مشاقِّ الحياة.

إنَّ التعصُّب مرض عضال مزمن، عانت منه البشرية على امتداد تاريخها الطويل، وما زالت تعاني، وستظل تعاني، ولهذا فإن المطلوب ليس استئصال شأفة (التعصب) وإنما التخفيف من لأوائه، وهذا يحتاج إلى علاجات مركبة وعلى النفس الطويل.

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف

- أ.د. عبد الكريم بكار.

حصل على البكالوريوس من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، وعلى الماجستير في عام: (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، والدكتوراه في عام: (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) من قسم أصول اللغة بالكلية نفسها بجامعة الأزهر، وكان عنوان رسالة الدكتوراه: « الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي ».

قاد أ.د. عبد الكريم بكار مسيرة أكاديمية طويلة، دامت (٢٦ عامًا) بدأت عام: (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم (السعودية)، لينتقل بعدها إلى جامعة الملك خالد في أبها في عام: (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، حصل خلالها على درجة الأستاذية في عام: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) وليبقى فيها حتى استقال منها عام: (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)؛ ليتفرغ للتأليف والعمل الثقافي والفكري، حيث يقيم في العاصمة السعودية الرياض.

وتركزت المسيرة الأكاديمية للدكتور بكار على تدريس اللُّغويات، والتي شملت مواد المعاجم اللُّغوية، دلالة الألفاظ، الأصوات اللغوية، اللهجات العربية، القراءات القرآنية واللهجات،

النحو، الصرف، المدارس النحوية وتاريخ النحو. كما قدم د. بكار خلال تلك الفترة عددًا من الأبحاث والكتب المتخصصة والتعليمية في مجال اللّغويات، وأسهم في النشاط الأكاديمي للجامعات التي عمل بها من خلال رئاسته لعدد كبير من اللجان العلمية، ورئاسته لقسم النحو والصرف وفقه اللغة لعدة سنوات، ومساهمته في وضع المناهج، والإشراف على البحوث، وتحكيم الدراسات العلمية.

وللدكتور بكار نشاط مكثف على صعيد المحاضرات، والندوات الفكرية والثقافية والدورات التدريبية، وشارك في المئات منها في المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين وتركيا ولبنان ومصر والأردن وماليزيا والسودان. كما يقدم حاليًا برنامجًا أسبوعيًا في قناة (دليل) الإسلامية باسم: « آفاق حضارية »، وبرنامجًا شهريًا بقناة المجد باسم: « معالي »، وكان أ.د. بكار قد قدم برنامجًا تلفزيونيًا أسبوعيًا في قناة المجد باسم: « دروب النهضة » لمدة عامين، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا باسم: « بناء العقل في القرآن الكريم »، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا آخر باسم: (العلاقات الإنسانية في المجتمع الإسلامي) استمرًا لمدة سنتين بإذاعة القرآن الكريم بالرياض، بالإضافة لاستضافته في برامج عديدة على قناة (الرسالة)، وقناة (اقرأ)، وقناة (الناس) والتلفزيون السعودي.

ويحرص أ.د. بكار على أن يقدم رؤاه الفكرية والتربوية من

خلال مشاركته الواسعة في مختلف الصحف، والمجلات العربية المتخصصة والعامة؛ حيث يكتب أ.د. بكار مقالات دورية في مجلة « البيان » اللندنية ومجلة « الإسلام اليوم » الشهرية، ومجلة: « مهارتي » الصادرة عن جامعة الملك سعود وموقع « الإسلام اليوم »، كما يشارك باستمرار منذ أكثر من عشرين سنة بمقالاته ودراساته في عدد من المجلات الدورية الأخرى.

وأ.د. بكار عضو في المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإسلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي (الرياض)، وعضو الهيئة الاستشارية بمجلة: « الإسلام اليوم » (الرياض)، وعضو الهيئة التأسيسية لقناة (دليل)، وعضو في مجلس الأمناء لقناة (سنا) الفضائية (عمان).

ويعد أ.د. بكار أحد المؤلفين البارزين في مجالات التربية والفكر الإسلامي؛ حيث يسعى إلى تقديم طرح مؤصل ومجدد لمختلف القضايا ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية، وقضايا النهضة والفكر والتربية، والعمل الدعوي.

وللدكتور بكار حوالي ثلاثين كتابًا في هذا المجال؛ لقي الكثير منها رواجًا واسعًا في مختلف دول العالم العربي، كما قدم أ.د. بكار للمكتبة الصوتية أكثر من مائة ساعة صوتية مسجلة ومنشورة في مكتبات التسجيلات الصوتية.

- وفيما يلي قائمة بالكتب والدراسات الأكاديمية المتخصصة:

١ - أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري، بحث غير منشور، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٢ - ابن مجاهد شيخ قراء بغداد، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)

٣ - تحقيق كتاب: «القواعد والإشارات في أصول القراءات»، للقاضي أحمد بن عمر الحموي، دار القلم، دمشق، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٤ - الصفوة من القواعد الإعرابية، دار القلم، دمشق، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٥ - تحقيق كتاب: «رد الانتقاد على الشافعي في اللغة» للإمام البيهقي، دار البخاري، بريدة، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٦ - أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٧ - المهدوي ومنهجه في كتابه: «الموضح»، دار القلم، دمشق، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

٨ - ابن عباس مؤسس علوم العربية، دار السوادي، جدة، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

٩ - دراسة لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية، كلية اللغة

العربية بأبها، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

- أمَّا الكتب التربوية والفكرية الصادرة للدكتور بكار؛ فمنها الكتب التالية:

١ - فصول في التفكير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

٢ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٣ - من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دار المسلم، الرياض، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٤ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

٥ - مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار المسلم، الرياض، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٦ - في إشراقة آية، دار هجر، أبها (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٧ - من أجل شباب جديد، بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب الإسلامي، عمَّان، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٨ - حول التربية والتعليم، دار المسلم، الرياض، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٩ - العولمة، دار الأعلام، عمّان، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

١٠ - القراءة المثمرة، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١١ - العيش في الزمان الصعب، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٢ - هي هكذا، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٣ - مسار الأسرة، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٤ - القواعد العشر، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٥ - التواصل الأسري، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٦ - تكوين المفكر: خطوات عملية، دار السلام، القاهرة، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

* * *

رقم الإيداع

٢٠١٠/٩٩١٦

الترقيم الدولي I.S.B.N

978 - 977 - 342 - 894 - 5

هذا الكتاب

دراسة ميدانية لبعض احتياجات الدين والأمة، تجمع في طياتها سلسلة من التأملات في طبيعة الدين وطبيعة الأمة وحالهما الراهن، وتأثير كل منهما في الآخر. ولما كان التحدي الحضاري القائم الآن هو التحدي الثقافي، أدركنا أن مجابهة هذا التحدي لن تأتي بطائل ما لم تعمل ضمن إستراتيجية عمل ثقافي تقوم على وضع المسلمين على خارطة الثقافات في عالمنا المعاصر، لا بالتقليد والتكديس ولكن بالتميز والأصالة؛ فالنهاية المشرقة لا تكون إلا بالبداية الموفقة، والنهوض لا يكون إلا بنقل الفكرة من حيز التصور إلى مواقع التنفيذ. وهذا ما أكده الكتاب.

dar-alsalam insights

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 978-977-342-894-5







www.ibtesama.com